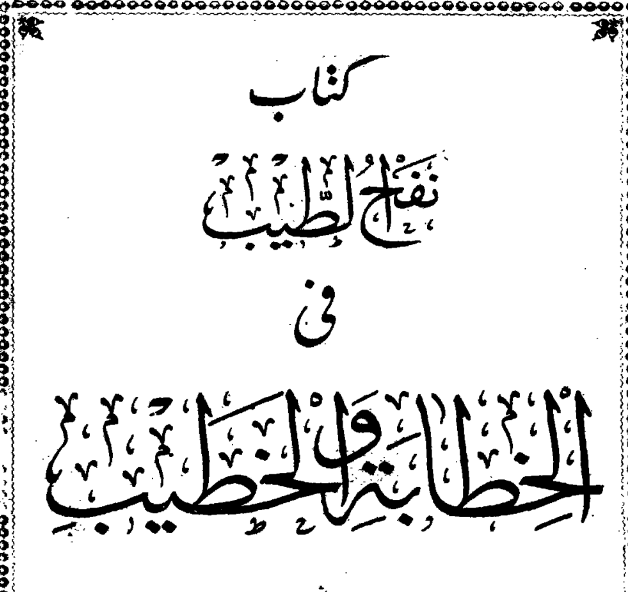
DAMAGE BOOK



أثر

معروف الرصافى

منتفك مبعوثى

طبع بمطبعة الاوقاف الاسلا
بدار الخلافة العليه

١٩١٧ — ١٣٣٦

كتاب
نفح الطيب في الخطابة والخطيب

تأليف
معلم الخطابة العربية فى مدرسة الواعظين
بدار الخلافة العلية مبعوث المنتفك
معروف الرصافى

الطبعة الاولى

طبع بمطبعة الاوقاف الاسلاميه
بدار الخلافة العليه
١٣٣٦ — ١٩١٧

*

بسم الله الرحمن الرحيم

حمد لله وثناء عليه وصلاة وتسليما على محمد رسوله وحبه وعلى آله وصحبه وجنده وحزبه .

وبعد فقد قرأت كتاب « البيان والتبيين » للجاحظ ونظرت فيه بامعان فوجدت فيه من فنون البيان مايفتق اللسان و يخلب الجنان الا انه احتوى على الغث والسمين وجاء بالبخس والثمين فكم وجدت فيه من درة الى جنبها خزفة ومن جمانة مقرونة بحصاة ومن شذور ذهب يتخللها مخشلب وكثيرا ما يخرج فى كلامه عن الصدد فبينما يتكلم عن شئ اذ تركه قبل التمام وخرج منه الى شئ آخر لايقتضيه المقام . وطالما وعد بذكر اشياء ثم لم يذكرها وذكر اشياء وهو لم يعد بها ولقد خيل لى ان الجاحظ عند تأليف هذا الكتاب كان يأخذ القلم فيكتب ماخطر له وعنّ من غير مراعاة نظير يطاب ذكر نظيره وقرين يدعو الى اثبات قرينه حتى اذا كتب ماشاءالله ان يكتب ترك الكتابة ثم عاد اليها فى وقت آخر فاخذ يكتب ماخطر بباله ايضا دون مراعاة ما كتبه قبلاً وهكذا الى آخر الكتاب سوى ان الذى كتبه كله لايخرج عن حد البيان فالبيان هو الامر الجامع بين كل مااثبته فى ذلك السفر . فمن جهة انه لاقران بين اكثر الاقوال التى اوردها كان كتابه اشبه شئ بكشكول العاملى ومن جهة انه كان يكتب فيه ماخطر على باله مما سمع وروى كان كتابه اشبه بمفكرة يحملها المرء فيثبت فيها كل يوم ما اراد اثباته من قول وعمل . وليس هذا بعجيب فان عصر الجاحظ حديث عهد بالتأليف اذ كان المؤلفون ولاسيما كتب

الادب لايعتمدون فيما يكتبونه الا على مارووه وسمعوه واستظهروه وحفظوه . ولايظنن القارئ اني اريد بكلامي هذا ان ابخس الجاحظ كتابه او انتقصه حقه وفضله فان الجاحظ امام من ائمة الادب وجهبذ من جهابذة العرب فما انا من نظرائه ولامن اكفائه ولئن قصر في كتابه هذا بعض التقصير فله فيه من الحسن الاحسان والفضل والافضال مالا يعفو اثره كر الزمان ولاتنوشه ايدي الفضلاء من ذوي البلاغة والبيان فهو على علاته درة يتيمة وطرفة كريمة وليست رسالتي هذه المستخلصة منه ومالي فيها سوى التمحيص والترتيب فكأني عمدت الى درر متفرقة فنفيت عنها الرغام وجمعتها في نظام فما انا فيها الا متطفل على موائد فضله ومغترف من بحر علمه وغاية ماهنالك انك اذا عنيت بالخطابة والخطيب وجئت الى كتاب الجاحظ فقلبته ظهر البطن لم تجد فيه مما عنيت به سوى لمع متفرقة لاتشفي منك علة ولاتبرد لك غلة اما اذا رجعت الى رسالتي هذه فانك تجد فيها مايكفيك ولو سداداً من عوز فهذه الرسالة تغنيك في هذا الباب عن كتاب الجاحظ ولايغنيك كتاب الجاحظ عنها .

والذي دعاني الى وضع هذه الرسالة هو انهم عهدوا الى بدرس الخطابة العربية في مدرسة الواعظين بقسطنطينية ولم يكن عندي من الكتب التي ارجع اليها في هذا الفن سوى كتاب الجاحظ المذكور فاستخرجت منه هذه الرسالة بعد ان طالعته بتدبر من اوله الى آخره اكثر من عشرين مرة وقد سميتها « نفح الطيب في الخطابة والخطيب » والله اسأل ان ينفع بها الطالبين ويجعل اجرها للجاحظ رحمه الله انه على ذلك قدير وبالاجابة جدير .

وانا الفقير اليه تعالى

معروف الرصافي

المبحث الاول

في

البيان

قال الجاحظ المعانى القائمة فى صدور العباد المتصورة فى اذهانهم الحادثة عن فكرهم مستورة خفية ومحجوبة مكنونة وموجودة فى معنى معدومة فلا يعرف الانسان ضمير صاحبه وانما تحيا تلك المعانى فى ذكرهم لها واخبارهم عنها بما يدل عليها ويكشفها فيجعل الخفى منها ظاهرا والغائب شاهدا . وعلى قدر وضوح الدلالة يكون اظهار المعنى فكلما كانت الدلالة اوضح وافصح كان المعنى اظهر . والدلالة الظاهرة على المعنى الخفى هو البيان .

فالبيان اسم جامع لكل شئ كشف لك قناع المعنى وهتك الحجب دون الضمير كائناً ما كان ومن أى جنس كان لان مدار الامر والغاية التى اليها يجرى القائل والسامع انما هو الفهم والافهام فبأى شئ بلغت الافهام و اوضحت عن المعنى فذلك هو البيان فى ذلك الموضع .

واعلم إن حكم المعانى خلاف حكم الالفاظ لان المعانى مبسوطة الى غير غاية وممتدة الى غير نهاية واسماء المعانى اى الالفاظ مقصورة معدودة ومحصلة محدودة فلابد اذاً من امور غير الالفاظ تكون رداً لها فى الدلالة على المعانى . وجميع اصناف الدلالات على المعانى من لفظ وغير لفظ خمسة اشياء لا تنقص ولا تزيد . اولها اللفظ ثم الاشارة ثم العقد ثم الخط ثم الحال وتسمى نصبة والنصبة هى الحال الدالة التى تقوم مقام تلك الاصناف ولا تقصر عن تلك الدلالات . ولكل واحدة من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها وحلية مخالفة لحلية اختها وهى التى تكشف لك عن اعيان المعانى فى الجملة وعن حقائقها فى التفسير .

ولا شك ان مدار الخطبة على البيان وان التفاضل الذى يجرى

فى الخطابة هو التفاضل الجارى فى البيــان لان الخطبة هى جملة من القول يقصد فيها الى الترغيب فيما ينفع الناس من امور معاشهم ومعادهم والتنفير مما يضرهم وقد تشتمل على المدح والفخر وغير ذلك . وكذلك الوصية الا ان الفرق بين الخطبة والوصية هو ان الخطب تكون فى المشاهد والمحافل والمجامع والايام والمواسم والتفاخر والتشاجر ولدى الكبراء والامراء ومن الوفود فى امر مهم. اما الوصايا فانها تكون لقوم مخصوصين او لشخص مخصوص فى زمن خاص على شئ خاص وكثيرا ما كانت تصــدر من شخص لعشيرته او سيد لقبيلته عند حلول مرض او محاولة نقلة او ماشابه ذلك .

ان كل الامم فى حاجة الى الخطابة وكانت العرب من احوج الامم اليها ولذلك ارتقت فى الخطابة مرتقى فاقت فيه على غيرها من سائر الامم اذ لا يخفى ما كانت عليه العرب ايام جاهليتهم من الانفة والتفاخر بالاحساب والانساب والمحافظة على شرفهم وعلو مجدهم وسؤددهم حتى حدث ما حدث بينهم من الوقائع العظيمة . ولا شك ان كل قوم لهم مثل ذلك هم احوج الناس الى ما يستــنهض هممهم ويوقظ اعينهم ويقيم قاعدهم ويشجع جبانهم ويشد جنانهم ويثير اشجانهم ويســتوقد نيرانهم صيانةً لعزهم ان يســتهان ولشوكتهم ان تستلان وتشــنياً باخذ الثار وتحرزاً من عار الغلبة وذل الدمار وكل ذلك من مقــاصد الخطب فكانوا احوج الناس اليها بعد الشعر لتخليد مآثرهم وتأبيد مفاخرهم . ولقد كان لكل قبيلة من قبائلهم خطيب كما كان لكل قبيلة شاعر على ما ذكره الجاحظ فى كتاب البيان .

وكان للعرب اعتنــاء بالخطيب فى جاهليتهم وللخطبــاء عناية بخطبهم فكانوا يتخيرون لها اجزل المعانى وينتخبون لها احسن الالفاظ تحصيلا لغرضهم ونيلا لمقصدهم فان الالفاظ الرائعة والمعانى الجزلة اوقع فى النفوس

واشد تأثيراً فى القلوب ولذلك ورد «ان من البيان لسحراً» والاذن للكلام البليغ اصغى واوعى . والترغيب فى العاجل والارهاب فى الآجل اللذان هما من اهم مقاصد الخطابة ومطالبها العالية ان لم يكونا بعبارات تخلب القلوب وتأخذ بمجامعها فلا تأثير فيهما ولا فائدة منهما .

ولما كان البيان لا يكون باللفظ فقط بل بغيره ايضا من الدلالات الاخر المتقدمة عدت اوضاع الخطيب واشارته باليد ونحوها فى اثناء خطبته من تمة بيانه للسامعين ولذا كان من عادة العرب فى الخطابة ان الخطيب منهم اذا تفاخر او تنافر او تشاجر رفع يده ووضعها وادى كثيرا من مقاصده بحركات يده فذلك اعون له على غرضه وارهب للسامعين واوجب لتيقظهم . ومن عادتهم ايضا فى الخطابة اخذ المخصرة بايديهم وهى ما يتوكأ عليه كالعصا ونحوها وكانوا يعتمدون على الارض بالعصى ويشيرون بالعصا والقنا وكانوا يستحسنون فى الخطيب ان يكون جهير الصوت ولذا مدحوا سعة الفم وذموا صغره وسيأتيك تفصيل ذلك كله .

المبحث الثانى

فى

قوام الخطابة وآدابها

قال الجاحظ فى كتاب البيان قال ابن جرير رأس الخطابة الطبع وعمودها الدربة وجناحاها رواية الكلام وحليها الاعراب وبهاؤها تخير اللفظ وتمامها الاشارة .

ترى ان ابن جرير قد ذكر فى كلامه هذا ستة امور ثلاثة منها ضرورية فلا تقوم الخطابة الا بها ولا يكون الانسان خطيبا ما لم يحصل عليها وهى الطبع والدربة ورواية الكلام . واهم هذه الثلاثة الطبع ولذا جعله ابن جرير رأس الخطابة فكما ان الحيوان بلا رأس لا يكون فكذلك

من لم يكن له طبع فى الخطابة لايكون خطيبا وان كان من اهل الفصاحة واللسن وكذلك من لم يكن له طبع فى الشعر لايكون شاعرا وان كان ذابلاغة وبيان . وهذا مما لامرية فيه وقدصرح به الجاحظ فى البيان والتبيين حيث قال قال مسلمة بن عبدالملك لنصيب ياابالحجناء أماتحسن الهجاء قال أماترانى احسن مكان عافاك الله لاعافاك الله . ولاموا الكميت ابن زيد على الاطالة فقال انا على القصار اقدر وقيل للعجاج مالك لاتحسن الهجاء قال هل فى الارض صانع الا وهو على الافساد اقدر . قال وهذه الحجج التى ذكروها عن نصيب والكميت والعجاج انما ذكروها على وجه الاحتجاج لهم وهذا منهم جهل ان كانت هذه الاخبار صادقة اذقد يكون الرجل له طبيعة فى الحساب وليس له طبيعة فى الكلام ويكون له طبيعة فى التجارة وليس له طبيعة فى الفلاحة ويكون له طبيعة فى الحداء اوفى التعبير اوفى القراءة بالالحان وليس له طبيعة فى الغناء وان كانت هذه الانواع كلها ترجع الى تأليف اللحون ويكون له طبيعة فى الناى وليس له طبيعة فى السرناى ويكون له طبيعة فى قصبة الراعى ولا يكون له طبيعة فى القصبتين المضمومتين ويكون له طبع فى صناعة اللحون ولايكون له طبع فى غيرها ويكون له طبع فى تأليف الرسائل والخطب والاسجاع ولايكون له طبع فى قرض بيت شعر ومثل هذا كثير جدا اهـ . فقد تبين لك ان من لم يكن له طبع فى الخطابة تعذر عليه ان يكون خطيبا ولذلك جعله ابن جرير رأس الخطابة . ثم تأتى بعده الدربة وهى المرانة والممارسة مع شئ من الجراءة ورباطة الجاش فان من كان ذا طبع فى الخطابة وجب عليه للتبريز فيها ان يكون ذا دربة بها بتمرنه عليها وممارسته اياها وتعويد نفسه الوقوف فى مواقفها حتى يحصل له بذلك من جرآءة الجنان فى معرض البيان مايكون به خطيبا مصقعا . وقدجعل ابن جرير الدربة عمود الخطابة وفى ذلك اشارة الى ان الذى لم يكن فى الخطابة ذادربة كان

طبعه فى الخطابة غير مجد نفعا لانه يكون كمن له بيت وليس له عمود يقوم عليه ذلك البيت وقد قال الشاعر

والبيت لا يبتنى الا له عمد ولا عماد اذا لم ترس اوتاد

ثم تأتى بعد الدربة رواية الكلام والمقصود برواية الكلام هو ان يكون الخطيب ذا علم باخبار الناس وانسابهم ونوادرهم واحوالهم ومراتبهم وبكل مايحتاج اليه الخطيب فى موقف الخطابة . وخلاصة القول ان يكون الخطيب غزير المادة فانه اذا لم تكن للخطيب مادة يستمد منها فى الخطابة تعذر عليه ان يقف موقف الخطيب وان كان فى الخطابة ذا طبع ودربة . وقد جعل ابن جرير رواية الكلام جناحى الخطابة يشير بذلك الى ان من لم يكن ذا رواية للكلام كان كطائر مقصوص الجناحين لايستطيع النهوض ولا الطيران .

فهذه الامور الثلاثة اعنى الطبع والدربة ورواية الكلام ممالابد منه للخطيب ولا تقوم الخطابة الابها . واما الثلاثة الاخرى وهى الاعراب وتخير اللفظ والاشارة فهى امور كمالية لاضرورية اذ الاعراب فى الخطبة حلية وزينة فاذا وقع اللحن فيها سقطت تلك الحلية وذهبت تلك الزينة كما ان تخير اللفظ حسن لها فاذا جاء الخطيب فى خطبته بالفاظ مبتذلة مرذولة ذهب الحسن من خطبته ولم تكن لكلامه طلاوة غير ان مصيبة الخطيب الراذل اعظم من مصيبة الخطيب اللاحن لان اللحن مغتفر وان كان معيبا وقد وقع لكثير من الخطباء الاولين كما سنذكره فى محله ولكن الخطيب اذا رذل الفاظه وجاء بها غير متخيرة ولا منتقاة لم تعطه الاسماع مقادتها ولم يكن لكلامه وقع كبير فى النفوس فيفوته الغرض من الخطابة وليس كذلك اللاحن . واما الاشارة فسنتكلم عليها فيما يأتى ان شاء الله تعالى.

اما آداب الخطابة فاعلم ان من آداب الخطيب فى الخطابة ان يلخص المعانى

كما ذكر ذلك الجاحظ عن ابن جرير ايضا فان تلخيصها رفق بالسامعين وان يترك الغريب من الالفاظ فان الاستعانة بالغريب عجز وان لا يتشادق فان التشادق من غير اهل البادية بغض والتشادق هو تكلف الفصاحة بان يتكلم كالاشدق وليس هو باشدق وكذلك التقعير وهو ان يخرج كلامه من اقصى الفم اى من الحلق وكذلك التعقيب وهو تقصير الكلام واخراجه من اول الفم من غير توفية الحروف حقها من مخارجها فان ذلك كله مذموم وممقوت . وقد قال الشاعر فى رجل يقعر قوله :

يقعر القول لكيما تحسبه　　من الرجال الفصحاء المعربة
وهو اذا حققته من كربة　　من نخلة نابتة فى خربة

ومن آداب الخطيب ان لا ينظر فى عيون الناس فان ذلك عى وان لا يمس لحيته فان مس اللحية هلاك وان لا يخرج مما بنى عليه اول الكلام فان خروجه من ذلك اسهاب . ومن آداب الخطابة ان لا يستعين الخطيب فى خطبته بالحشو من الكلام وتفسير ذلك ماذكره الجاحظ فى كتاب البيان قال حدثنى صديق لى قال قلت للعتابى ما البلاغة قال كل من افهمك حاجته من غير اعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ فاذا اردت اللسان الذى يروق الالسنة ويفوق كل خطيب باظهار ما غمض من الحق وتصوير الباطل فى صورة الحق قال فقلت له قد عرفت الاعادة والحبسة فما الاستعانة قال أما تراه اذا تحدث قال عند مقاطع كلامه ياهناه وياهذا وياهيه واسمع منى واستمع الى وافهم عنى أولست تفهم أولست تعقل فهذا كله وما اشبهه عى وفساد اه . فهذا وما اشبهه معدود من الحشو الذى لا طائل تحته فينبغى للخطيب ان يجتنبه . واما الاعادة التى ذكرها فهى ان يعيد الكلمة او الجملة مرتين لكى يتأتى له ما بعدها وذلك ايضا من دلائل العى واما الحبسة فهى ان يتعذر عليه الكلام عند ارادته فيتوقف فى اثناء خطبته عن الكلام

هنيهة فيجرى كلامه متقطعا غير منسجم ولا متسلسل وسنذكر الحبسة عندالكلام على معايب الخطيب فيما يأتى .

المبحث الثالث

فى

محاسن الخطباء ومعايبهم

قلنا فيما سبق ان انواع الدلالات فى البيان خمسة اولها اللفظ واذكر هنا مايتعلق باللفظ من محاسن الخطيب ومعايبه فنقول كل ما كان فى الخطيب معينا على الافصاح فى اللفظ فهو من محاسنه وكذلك كل ما كان مخلا بالافصاح فى لفظه فهو من معايبه . فمن محاسنه جهارة الصوت فان الخطيب اذا كان جهير الصوت كان لفظه افصح وتأثيره فى نفوس السامعين اشد فان الصوت الضئيل لايؤثر تأثير الجهير وهذا هو السبب الذى حمل المتشادقين على التشادق والتقعير لان العرب كانوا يمدحون الجهير الصوت ويذمون الضئيل الصوت ولذلك مدحوا سعة الفم وذموا صغره قال محمد بن بشير الشاعر قيل لاعرابى ما الجمال قال طول القامة وضخم الهامة ورحب الشدق وبعد الصوت . ويدلك على تفضيلهم سعة الاشداق وهجائهم ضيق الافواه قول الشاعر

لحا الله افواه الدبى من قبيلة   اذا ذكرت فى النائبات امورها

وانما شبه افواههم بافواه الدبى لصغر افواههم وضيقها . وقد كان العباس بن عبد المطلب جهير الصوت وقد مدح بذلك وقد نفع الله المسلمين بجهارة صوته يوم حنين حين ذهب الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فنادى العباس يا اصحاب سورة البقرة هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فتراجع القوم وانزل الله

عن وجل النصرة واتى بالفتح . وقال العجير السلولى فى شدة الصوت

لوان الصخور الصم يسمعن صلقنا　　لرحن وفى اعراضهن فطور

الصلق شدة الصوت وفطور شقوق وقال بشار بن برد يهجو بعض الخطباء

ومن عجب الايام ان قمت ناطقاً　　وانت ضئيل الصوت منتفخ السحر

فعابه بضؤولة الصوت وبالسعال اثناء الخطبة لانتفاخ سحره والسحر الرئة وفى تفضيل الجهارة فى الخطب يقول شبة بن عقال بعقب خطبته عند سليمان بن على بن عبدالله بن عباس :

الا ليت ام الجهم والله سامع　　ترى حيث كانت بالعراق مقامى

عشية بذ الناس جهرى ومنطقى　　وبذ كلام الناطقين كلامى

وقال طحلاء يمدح معاوية بالجهارة وبجودة الخطبة :

ركوب المنابر وثابها　　معن بخطبته مجهر

تريع اليه هوادى الكلام　　اذا ضل خطبته المهذر

معن تعن اى تعرض له الخطبة فيخطبها مقتضبا لها وتريع اليه ترجع اليه وهوادى الكلام اوائله فاراد ان معاوية يخطب فى الوقت الذى يذهب فيه كلام المهذر والمهذر المكثار . وكان ابو عروة الذى يقال له ابو عروة السباع يصيح بالسبع وقد احتمل الشاة فيخليها ويذهب هارباً على وجهه فضرب الشاعر به المثل وهو النابغة الجعدى فقال

وازجر الكاشح العدو اذا اغتا　　بك عندى زجراً على أضم

زجر ابى عروة السباع اذا　　اشفق ان يلتبسن بالغنم

وكان شبيب بن زيد بن نعيم يصيح فى جنبات الجيش اذا اتاه فلا يلوى احد على احد وقال الشاعر فيه

ان صاح يوما حسبت الصخر منحدراً والريح عاصفة والموج يلتطم

ومن محاسن الخطيب ان يكون شديد العارضة والعارضة هى البيان واللسن والجلد والقدرة الفائقة على الكلام . ومن محاسنه ان يكون ثابت الجنان رابط الجاش وبعبارة اوضح ان يكون ذا جراءة فى القول لا يتهيب خصام المخاصمين وان كثروا ولا كثرة المجادلين وان عظموا وعليه تجمعوا . ومن محاسن الخطيب ان يكون كثير الريق بحيث لا يجف فمه اذا اطال الخطبة لان الريق اذا جف فى الفم صعب عليه الكلام وتلجلج فيه ولذلك ترى الخطباء اليوم اذا اراد احدهم ان يخطب فى بعض المجامع والمحافل وضعوا له فى جانبه شربة ماء ليشرب منها فى اثناء الخطابة جرعا يستعين بها على الكلام .

وقد جعل بعضهم من محاسن الخطيب ان يكون ذا هيئة حسن البزة حسن السمت جميل الصورة جليل المنظر . وقد خالف هذا القول سهل ابن هارون واحتج فى ذلك فقال لو ان رجلين خطبا او تحدثا وكان احدهما جميلا جليلا بهياً نبيلا وذا حسب شريفا وكان الآخر قليلا قميئاً وباذ الهيئة رث الثياب خامل الذكر مجهولا ثم كان كلاهما فى مقدار واحد من البلاغة ووزن واحد من الصواب لتصدع عنهما الجمع وعامتهم تقضى للقليل الذميم على النبيل الجسيم وللباذ الهيئة على ذى الهيئة ولشغلهم التعجب منه عن مساواة صاحبه له ولصار التعجب منه سببا للعجب به ولكان الاكثار فى شأنه علة للاكثار فى مدحه لان النفوس كانت له احقر ومن بيانه أيئس ومن حسده ابعد فاذا هجموا منه على مالم يحتسبوه وظهر منه خلاف ما قدروه تضاعف حسن كلامه فى صدورهم وكبر فى عيونهم

لان الشئ من غير معدنه اغرب وكلما كان اغرب كان ابعد فى الوهم وكلما كان ابعد فى الوهم كان اظرف وكلما كان اظرف كان اعجب وكلما كان اعجب كان ابدع وانما ذلك كنوادر كلام الصبيان وملح المجانين فان ضحك السامعين من ذلك اشد وتعجبهم به اكثر

وانت تعلم ان القول الاول هو الصواب اذلاشك ان جمال الصورة و بهاء المنظر وحسن الهيئة والسمت امور معدودة من تمات الكمال وفى كلام سهل بن هارون شئ من المغالطة اذ لو سلمنا ان الناس يقضون لذلك الرجل الدميم الرث الهيئة مع مساواة صاحبه له فى البلاغة لانسلم انهم قضواله بسبب دمامة منظره ورثاثة هيئته بل هم انما قضواله بسبب تعجبهم منه من حيث انهم كانوا لاينتظرون منه تلك البلاغة ولا يتوقعون منه تلك البراعة كما قد اعترف به سهل بن هارون نفسه وعدم انتظارهم منه ذلك دليل على ان دمامة المنظر ورثاثة الهيئة نقص عندهم . هذا ما ذكرناه من محاسن الخطيب وسنأتى على ذكر معايبه فى الدرس الآتى .

المبحث الرابع
فى
معايب الخطيب

كل ما كان فى الخطيب مخلا بفصاحته فى اللفظ عد من معايبه فمن معايبه ان يكون لجلاجا اى مترددا فى كلامه واللجلجة هى التردد فى الكلام كأن يكرر الكلمة حتى يتأتى له النطق بما بعدها ويقابلها الذلاقة والطلاقة يقال لسان ذليق وخطيب ذليق ولسان ذليق طليق كل ذلك اذا كان ذاحدة وبلاغة وفصاحة وقال اللهبى فى اللجلاج

ليس خطيب القوم باللجلاج   ولا الذى يزحل كالهلباج
ورب بيداء وليل داج   هتكته بالنص والادلاج

ويدخل فى باب اللجلاج الخطيب الذى تعرض له النحنحة والسعلة وذلك اذا انتفخ سحره اى رئته فان ذلك ايضا نوع من اللجلجة والتردد فى الكلام وفى قال سحيم بن حفص :

نعوذ بالله من الاهمال   ومن كلال الغرب فى المقال
ومن خطيب دائم السعال

وقال بشر بن معمر فى مثل ذلك ايضا :

ومن الكبائر مقول متتعتع   جم التنحنح متعب مجهود

وقال الاشل البكرى فى زيد بن جندب الايادى خطيب الازارقة وكانا قد اجتمعا فى بعض المحافل :

نحنح زيد وسعل   لما رأى وقع الاسل
ويل امه اذا ارتجل   ثم اطال واحتفل

ومن معايب الخطيب ان يكون تمتاماً والتمتمة هى رد الكلام الى التاء والميم وقيل التمتام هو الذى تسبق كلمته الى حنكه الاعلى وعن ابى زيدان التمتام هو الذى يعجل فى الكلام ولا يفهمك والصحيح ماقاله الاصمعى حيث قال اذا تتعتع اللسان فى التاء فهو تمتام واذا تتعتع فى الفاء فهو فأفاء وفى ذلك يقول ابو الزحف

لست بفأفاء ولا تمتام   ولا كثير الهجر فى المنام

وانشد ايضا للخولانى

ان السياط تركن لاستك منطقاً　　كمقالة التمتام ليس بمعرب

فقد جعل الخولانى التمتام غير معرب عن معناه ولامفصح بحاجته

ومن معايبه ايضا ان يكون فأفاءً والفأفاءهوالذى يكثر الفاءويتردد فيها فى كلامه وقد تقدم فى ذلك قول الاصمعى وقيل الفأفأة حبسة فىاللسان وقال المطرزى الفأفآء هوالذى لايقدر علىاخراج الكلمة من لسانه الابجهد يبتدئ فى اول اخراجها بشبهالفاء ثم يؤدى بعدبالجهد حروف الكلمة على الصحة . والصحيح هوالقول الاول .

ومن معايبه ان يكون الثغ وهوالذى يحول لسانه من حرف الى حرف آخر كأن تحول لسانه من السين الىالثاء اومن الراء الىالغين او غير ذلك . و ذكر الجاحظ فى كتابالبيان انالحروف التى تدخلها اللثغة اربعة القاف والسين واللام والراء قال واللثغة التى تعرض للسين تكون ثآء كقوله لابى يكسوم ابى يكثوم وكما يقولون بثرة اذا ارادوا بسرة وبثم الله اذا ارادوا بسمالله وامااللثغة التى تعرض للقاف فان صاحبها يجعل القاف طاء فاذا اراد ان يقول قلتله فاله طاتله واذا اراد ان يقول قال لى قال طالى واما اللثغة التى تعرض للام فان من اهلها من يجعل اللام يآء فيقول بدل قوله اعتللت اعتييت وبدل جمل جمى ومنهم من يجعل اللام كافاً كالذى عرض لعمر اخى هلال فانه كان اذا اراد ان يقول ماالعلة فىهذا قال ما اكعكة فى هذا وامااللثغة التى تقع فىالراء فان عددها يضعف على عدد لثغة اللام لان الذى يعرض لها اربعة احرف فمنهم مناذا اراد ان يقون عمرو قال عمى فيجعل الراء ياءومنهم من اذا اراد ان يقول عمرو قال عمغ فيجعل الراء غينا ومنهم من اذا ارادان يقول عمرو قال عمذ فجعل الراء ذالا واذا انشد قول الشاعر

واستبدت مرة واحدة   انما العاجز من لا يستبد

قال :

واستبد مدة واحدة   انما العاجز من لا يستبد

ومنهم من يجعل الراء ظاء معجمة فيقول اذا انشد هذا البيت

واستبدت مظة واحدة   انما العاجز من لا يستبد

والذى يجعل الراء غينا معجمة يقول اذا انشد هذا البيت « واستبدت مغة واحدة » واما اللثغة الخامسة التى كانت تعرض فى الراء لواصل بن عطاء وسليمان بن يزيد العدوى الشاعر فليس الى تصويرها سبيل وكذلك اللثغة التى كانت تعرض فى الشين لمحمد بن الحجاج فان تلك ايضا ليس لها صورة فى الخط ترى بالعين وانما يصورها اللسان وتتأدى الى السمع .

وربما اجتمعت فى الواحد لثغتان فى حرفين كنحو لثغة شوشى صاحب عبدالله بن خالد الاموى فانه كان يجعل اللام ياء والراء ياء قال مرة « موياى وياى » يريد مولاى ولى الرى . واللثغة فى الراء اذا كانت بالياء فهى احقرهن ثم التى على الظاء ثم التى على الذال فاما التى على الغين فهى ايسرهن ويقال ان صاحبها لو جهد نفسه جهده واخذ لسانه وتكلف مخرج الراء على حقها والافصاح بها لم يكن بعيدا من ان تجيبه الطبيعة

واعلم ان اللثغة اما ان تكون خلقية فطرية واما ان تكون ناشئة عن عجمة اللسان ولكنته كما نسمعه فى كلام الاعاجم او فى كلام العرب الذين هم يرتضخون اللكنة بسبب مخالطتهم العجم ردحا من الدهر فانا نسمع الترك والفرس عند نطقهم ببعض الكلمات العربية يجعلون الذال زايا فيقولون فى ذلك زالك وفى الذى اللزى ويقولون فى ذليل زليل وكذلك هم فى الظاء فيقولون فى ظالم زالم وفى مظلوم مزلوم وفى نظر نزر ويجعلون الثاء

سينا فيقولون فى ثلاثة سلاسة وفى اثنين اسنين وفى اثم اسم وقدسمعت مرة احدهم يقرأ قوله تعالى ان بعض الظن اثم فقال (ان بعزالزن اسم) فقلت له وان بعضه فعل ففطن لما اردت واخذ بالضحك وكذلك الضاد فانهم يجعلونها زايا ايضا كما رأيت فى المثال المتقدم الا انهم ينطقون بالزاء فى ذلك كله مفخمة وكذلك نرى اليوم بعض العرب الذين طرأت اللكنة على لسانهم بطول اختلاطهم مع العجم فان اهل سورية يجعلون الذال والظاء زايا كما يجعلون الضاد دالا مفخمة فيقولون فى الضرب الدرب وربما جعلوها زايا ايضا فيقولون فى ضابط زابط ويجعلون القاف همزة فيقولون آل بدل قال وأات بدل قلت وألم بدل قلم وكذلك اهل مصر يجعلون الثاء تاء فيقولون فى كثير كتير وربما جعلوها سينا ايضا ويجعلون الجيم كافا فارسية فيقولون فى جمل كمل واهل العراق يجعلون القاف كافا فارسية فيقولون فى قائم كائم وفى قاعد كاعد كما يجعلون الكاف جيما فارسية فيقولون كذب چذب ويقولون بدل كان چان . غير ان هؤلاء العرب قادرون على ترك هذه اللثغة فان السورى قادر على النطق بالذال مثلا من مخرجها وكذلك العراقى قادر على النطق بالقاف والكاف من مخرجهما والمصرى قادر على النطق بالجيم من مخرجها بخلاف غيرهم من العجم فان التركى مثلا غير قادر على ترك لثغته الا بالتدرب والممارسة الطويلة وربما استعصى عليه تركها بالمرة . ولقد كان فى قديم الزمان اناس من العجم قد خالطوا العرب وعاشوا بينهم وتكلموا بلسانهم وفيهم الشاعر والخطيب ولكنهم مع ذلك لم تفارقهم اللكنة الاعجمية بل كانوا اذا تكلموا لثغوا فى كلامهم بتغيير بعض الحروف فمن هؤلاء زياد بن سلمى ابو امامة وهو زياد الاعجم قال ابو عبيدة كان ينشد قوله .

فتى زاده السلطان فى الود رفعة   اذا غير السلطان كل خليل

قال كان يجعل السين شينا والطاء تاء فيقول « فتى زاده الشلتان

فى الود رفعة » ومنهم سحيم عبد بنى الحسحاس قال له عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقد انشده قصيدته التى اولها

عميرة ودع ان تجهزت غاديا   كفى الشيب والسلام للمرء ناهيا

لو قدمت الاسلام على الشيب لاجزتك فقال ماسعرت يريد ماشعرت فجعل الشين سينا . ومنهم عبيدالله بن زياد والى العراق قال لهانئ بن قبيصة أهروزى سائراليوم يريد أحروزى . ومنهم صهيب بن سنان النمرى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول انك لهائن يريد انك لخائن و صهيب بن سنان هذا كان يرتضخ لكنة رومية وعبيدالله ابن زياد كان يرتضخ لكنة فارسية وقد اجتمعا على جعل الحاء هاء واما ازدايقاذار فانه كان يرتضخ لكنة نبطية وكان مثلهما فى جعل الحاء هاء وروى بعضهم انه املى على كاتب له فقال اكتب الهاصل الف كر فكتبها الكاتب بالهاء كما لفظ بها فاعاد عليه الكلام فاعاد عليه الكاتب فلمافطن لاجتماعهما على الجهل قال انت لاتهسن ان تكتب وانالا اهسن ان املى فاكتب الحاصل الف كر فكتبها بالجيم . ومنهم ابومسلم صاحب الدعوة كان جيد الالفاظ جيد المعانى وكان اذا اراد ان يقول قلت له قال كلت له فشارك فى تحويل القاف كافا عبدالله بن زياد . وكان لزياد عبد اسمه قيل قال مرة لزياد اهدو الينا هار وهش يريد حمار وحش فقال له زياد وأى شئ تقول ويلك قال اهدوا الينا أيرا يريد عيرا فقال زياد الاول اهون . وقالت امولد لجرير بن الخطفى لبعض ولدها وقع الجردان فى عجان امكم ابدلت الذال دالا من الجرذان وضمت الجيم وجعلت العجين عجانا ، وقال ابن عباد ركبت عجوز سندية جملا فلما مشى تحتها متخلعا اعتراها كهيئة حركة الجماع فقالت هذا الدمل يذكرنا بالسر فجعلت الشين سينا والجيم ذالا .

ومن معايب الخطيب ان يكون ذاحبسة والحبسة هى تعذرالكلام عند

ارادته وتقال فى لسانه حبسة اذا كان الكلام يثقل عليه ولم يبلغ حد الفأفاء والتمتام كما يقال فى لسانه لكنة اذا ادخل بعض حروف العجم فى حروف العرب وجذبت لسانه العادة الاولى الى المخرج الاول . ومن قال ان الحبسة هى تعذر الكلام عند ارادته فقد جعلها من قبيل الحصر والعى فى المنطق والصحيح انها تعسر الكلام لا تعذره ومعنى ذلك ان صاحب الحبسة هو من اذا اراد ان يتكلم ثقل عليه الكلام باقل مما يثقل على الفأفاء والتمتام .

ومن معايب الخطيب ان يكون ذا حكلة وهو الذى لا يسمع صوته اذا تكلم وهذه تقابل جهارة الصوت التى هى من محاسن الخطيب كما مر . والحكل ما لا يسمع له صوت كالذر ويقال تكلم كلام الحكل اى كلاما لا يفهم قال رؤبة بن العجاج .

لو اننى اوتيت علم الحكل　　　علم سليمان كلام النمل

وقال محمد بن ذؤيب فى مدح عبد الملك بن صالح

ويفهم قول الحكل لو ان ذرة　　　تساود اخرى لم يفته سوادها

وقال التميمى فى هجائه ابنى تغلب

ولكن حكلا لا تبين ودينها　　　عبادة اعلاج عليها البرانس

قال الجاحظ « اذا قالوا فى لسانه حكلة فانما يذهبون الى نقصان آلة المنطق وعجز اداة اللفظ حتى لا تعرف معانيه الا بالاستدلال » ولا شك ان الصوت معدود من آلة المنطق واداة اللفظ فاذا كان فى الصوت نقص وعجز كان غير مسموع جيدا واذا كان غير مسموع جيدا فاتت السامع بعض كلماته واذا فاتت السامع بعض كلماته صار لا يعرف معانيه الا بالاستدلال وخلاصة القول ان الحكل هو ما لا يسمع له صوت فالحكلة اذاً عيب خاص الصوت ولكنهم ربما توسعوا فى ذلك فاطلقوا الحكل على كل من لا يحسن

البيان سواء كان ذلك لعجز في صوته او لغير ذلك كما رأيت في بيت التميمي الذي تقدم حيث قال

ولكن حكلا لا تبين ودينها عبادة اعلاج عليها البرانس

فقد جعل بني تغلب حكلا وفسره بقوله لا تبين ولم يقصد ان بني تغلب كانهم اصواتهم غير مسموعة

ومن معايب الخطيب ان يكون ألثغ اى بلسانه لثغ وهو الذى اذا تكلم ملأ لسانه فمه وكان بطيء الكلام قال ابو عبيدة اذا ادخل الرجل بعض كلامه في بعض فهو الثغ وقيل بلسانه لثغ وانشد لابي الزحف الراجز

كأن فيه لففا اذا نطق من طول تحبيس وهم وارق

يقول كأنه لما جلس وحده ولم يكن له من يكلمه وطال عليه ذلك اصابه لفف في لسانه وكان زيد بن جابر قاضي الازارقة بعدالمقعد يقال له الصموت لانه لما طال صمته ثقل عليه الكلام فكان لسانه يلتوى ولا يكاد يبين . ويفهم من هذا ان اللفف اما ان يكون عارضا من طول الصمت وترك ممارسة الكلام واما ان يكون خلقيا بمعنى ان صاحبه كذا خلق .

ومن معايب الخطيب ان يكون هذارا والهذرمة هي العجلة والاسراع في الكلام وانشد الاصمعي .

حديث بني زط اذا ما لقيتهم كنزو الدبى في العرفج المتقارب

قال ذلك حين كان في كلامهم عجلة فشبه كلامهم بتتابع الاصوات الحاصلة من توائب الدبى بين شجر العرفج والدبى اصغر الجراد وقيل الجراد قبل نبات اجنحته الواحدة دباة . وقال سلمة بن عياش

كأن بني رالان اذجاء جمعهم فراريج يلقى بينهن سويق

قال ذلك لرقة اصواتهم وعجلة كلامهم لان الفراريج اذا ألقى لها

الحب صرن ينقدنه بمناقيرهن ويصوتن عند نقده اصواتا متقطعة متتابعة فهذرمة بنى زالان فى كلامهم كاصوات هذه الفراريج من حيث انها غير مفهومة اذ لاشك ان العجلة فى الكلام لم تكن امرا معيبا الا لكونها مخلة بفهم المعنى عند السامع .

وقد تبين لك من هذه المعايب التى ذكرناها ان كل ما اخل بالافصاح وادى الى اختلال الصوت الذى منه تتكون الحروف كان معيبا فى الخطيب واذا كان الامر كذلك فسقوط بعض الاسنان ولاسيما الثنايا من فم الخطيب معيب لان ذلك مؤد الى اختلال الصوت وقلة الافصاح فى اللفظ . وكان سهيل بن عمرو الخطيب يخطب فى العرب ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك قبل اسلامه فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه يارسول الله انزع ثنيتيه السفليين حتى يدلع لسانه فلايقوم عليك خطيبا ابدا . وانما قال ذلك لان سهيلا كان اعلم فاذا نزعت ثنيتاه السفليان عجز عن النطق باكثر الحروف ولم يصلح حينئذ ان يكون خطيبا . ومما يدل على ان سقوط بعض الاسنان معدود من معايب الخطيب عندهم ماحكاه خلاد بن يزيد الارقط قال خطب الجمحى خطبة نكاح اصاب فيها معانى الكلام وكان فى كلامه صفير يخرج من موضع ثناياه المنزوعة فاجابه زيد بن على بن الحسين بكلام فى جودة كلامه الا انه فضله بحسن المخرج والسلامة من الصفير فذكر عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر سلامة لفظ زيد بسلامة اسنانه فقال فى كلمة له

قلت قوادحها وتم عديدها فله بذاك مزية لاتنكر

ويروى بدل الشطر الاول « صحت مخارجها وتم حروفها » فعلى الرواية الاولى الضمير فى قوادحها وعديدها راجع الى الاسنان والقوادح جمع قادحة وهى الدودة التى تخر الاسنان يقال اسرعت فى اسنانه القوادح اذا اصابها ذلك فتساقطت فكأنه قال ان اسنانه قد سلمت من القوادح

فتم عديدها ولم يسقط منها شئ فكانت له بسببها مزية فى خطبته لاتنكر. وعلى الرواية الثانية الضمير فى مخارجها وحروفها راجع الى الخطبة والمعنى ظاهر. وانت ترى ان الجمحى وزيدا كانا متساويين فى البلاغة وجودة الكلام وانما فضله زيد بتمام اسنانه وسلامة خطبته من الصفير فكان سقوط اسنان الجمحى معيبا فيه. وقال الاحنف بن قيس يفتخر بتمام اسنانه وهو ابين العرب والعجم.

انا ابن الزافرية ارضعتنى بثدى لااجد ولا وخيم
اتمتنى فلم تنقص عظامى ولا صوتى اذا اصطك الخصوم

قال يونس بن حبيب انما عنى بقوله عظامى اسنانه التى فى فمه وهى التى اذا تمت تمت الحروف قال ولا يجوز ان يكون عنى بقوله عظامى عظام اليدين والرجلين اذ كيف يعنى ذلك وهو احنف من رجليه جميعا.

وقد ذكروا ان معاوية لم يتكلم على منبر جماعة مذ سقطت ثناياه فى الطست قال ابو الحسن وغيره لما شق على معاوية سقوط مقادم فمه قال له يزيد بن معن السلمى والله مابلغ احد سنك الا ابغض بعضه بعضا ففوك اهون علينا من سمعك وبصرك فطابت نفسه. قال ابو الحسن المدائنى لما شد عبد الملك اسنانه بالذهب قال لولا المنابر والنساء ماباليت متى سقطت. هذا اذا سقط بعض الاسنان دون بعض. اما اذا كان الخطيب ادرد اى ساقط الاسنان كلها فلاضير عليه من سقوطها اذ لايكون سقوطها حينئذ مخلا بالافصاح ولا مؤديا الى اختلال الصوت واخراج الحروف من مخارجها. قال محمد بن عمرو الرومى قد صحت التجربة وقامت العبرة على ان سقوط جميع الاسنان اصلح فى الابانة عن الحروف منه اذا سقط اكثرها وخالف احد شطريها الشطر الآخر وقد رأينا تصديق ذلك فى افواه قوم شاهدهم الناس بعد ان سقط جميع اسنانهم وبعد ان بقى منها الثلث والربع فمن سقط جميع اسنانه وكان معنى كلامه مفهوما الوليد

ابن هشام القحذمى صاحب الاخبار ومنهم ابو سفيان والعلاء بن لبيد التغلبى وكان ذا بيان ولسن . وكان سفيان بن الابرد الكلبي كثيرا ما يجمع بين القارّ والحار فتسا قطت اسنانه جميعا وكان مع ذلك خطيبا بيّنا . وقال اهل التجربة اذا كان فى اللحم الذى فيه مغارز الاسنان تشمير وقصر سمك ذهبت الحروف وفسد البيان واذا وجد اللسان من جميع جهاته شيأ يقرعه ويصكه ولم يمر فى هواء واسع المجال وكان لسانه يملأ جوبة فمه لم يضره سقوط اسنانه الا بالمقدار المغتفر . وقد ضرب الذين يقولون ان ذهاب جميع الاسنان اصلح فى الابانة عن الحروف من ذهاب الشطر او الثلثين فى ذلك مثلا فقالوا الحمام المقصوص جناحاه جميعا اجدر ان يطير من الذى يكون احدهما وافرا والآخر مقصوصا قالوا وعلة ذلك التعديل والاستواء واذا لم يكن كذلك ارتفع احد شقيه وانخفض الآخر فلم يجدف ولم يطر .

ومما يلحق بمعايب الخطيب الشغا وهو اختلاف نبتة الاسنان فى الطول والقصر والدخول والخروج . والسن الشاغية هى الزائدة على الاسنان ويقال لمن فيه ذلك اشغى وما سميت العقاب بالشغواء الا لزيادة منقارها الاعلى على الاسفل قال الجاحظ كان زيد بن جندب الايادى الخطيب الازرق اشغى افلج ولولا ذلك لكان اخطب العرب قاطبة وقال عبيدة بن هلال اليشكرى فى هجائه له

اشغى عقنباة وناب ذو عصل وقلح باد وسن قد نصل

والعقنباة من صفات العقاب يقال عقاب عقنباة اى ذات مخالب حداد والعصل الاعوجاج والقلح اصفرار فى الاسنان وقال عبيدة ايضا فيه

ولفوك اشنع حين تنطق فاغراً من فى قريح قد اصاب بريرا

والبرير ثمر الاراك .

وآخر ما نذكره من معايب الخطيب هنا هو ان يعتريه فى اثناء الخطابة

البهر والارتعاش والعرق قال الجاحظ واعيب عندهم اى العرب من دقة الصوت وضيق مخرجه وضعف قوته ان يعترض الخطيب البهر والارتعاش والرعدة والعرق قال العمانى فى وصف خطيب

لا ذفرهش ولا بكاب   ولا بلجلاج ولا هياب

والهش الذى يجود بعرقه سريعا وذلك عيب والذفر الكثير العرق والكابى الذى لايكاد يعرق كالزند الكابى الذى لايكاد يورى فجعل له العمانى حالا بين حالين اذا خطب .

المبحث الخامس
فى
حاجة الخطيب الى الاشارة

جرت العادة عند جميع الامم على اختلاف السنتها ان الانسان اذا تكلم احتاج فى اثناء كلامه الى الاشارة باليد والغمز بالعين والجفن والحاجب والى انغاض الرأس وتحريك المنكبين والى احداث اوضاع فى بدنه تناسب معانى كلامه وهذا مشاهد من كل من تكلم من الناس ولابد منه للمتكلم ولولاه لضاعت اكثر دقائق الكلام من معانيه المقصودة ولكان الكلام المسموع من فم المتكلم كالكلام المقروء فى كتاب ولما بقى فرق بين من قام خطيبا وبين من اخذ بيده صحيفة وصار يقرأ مافيها على السامعين مع ان الفرق بينهما ظاهر لاينكر .

ولاشك ان غرض المتكلم انما هو افهام المعنى والاشارة تشارك اللفظ فى الافهام بل قد تكون مستقلة فى التفهيم كما نشاهد ذلك فى كلام الخرس فانهم انما يتكلمون بالاشارة فقط وبها يتم التفاهم بينهم وبين من اراد الكلام معهم فالاشارة تنوب عن اللفظ فى كلام الخرس وتكون عونا له فى كلام غير الخرس .

وقد تكلم الجاحظ عن الاشـارة فقال فاما الاشارة فباليد وبالرأس وبالعين والحاجب والمنكب وبالثوب وبالسيف اذا تباعد الشخصان وقد يتهدد رافع السوط والسيف فيكون ذلك زاجرا رادعا ويكون وعيدا وتحذيرا قال والاشارة واللفظ شريكان ونعم العون هى له ونعم الترجمان هى عنه وما اكثر ماتنوب عن اللفظ وتغنى عن الخط . وفى الاشـارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير ومعونة حاضرة فى امور يسترها الناس من بعض ويخفونها من الجليس وغير الجليس ولولا الاشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص ولجهلوا هذا الباب البتة وقد قال الشاعر فى دلالة الاشارة :

اشارت بطرف العين خيفة اهلها   اشـارة مذعور ولم تتكلم
فايقنت ان الطرف قدقال مرحبا   واهلا وسهلا بالحبيب المتيم

وقال الآخر

وللقلب على القلب   دليل حين يلقـاه
وفى الـناس من الـنا   س مقاييس واشباه
وفى العين غنى للمرء   ان تنطق افواه

وقال الآخر

ترى عينها عينى فتعرف وحيها   وتعرف عينى مابه الوحى يرجع

وقال الآخر

العين تبدى الذى فى نفس صاحبها   من المحبة او بغض اذا كانا
والعين تنطق والافواه صامتة   حتى ترى من ضمير القلب تبيانا

هذا ومبلغ الاشارة ابعد من مبلغ الصوت فهذا ايضا باب تتقدم فيه الاشارة على الصوت . والصوت هو آلة اللفظ وهو الجوهر الذى يقوم به التقطيع وبه يوجد التأليف ولن تكون حركات اللسان لفظا ولا كلاما

موزونا ولا منثورا الا بظهور الصوت ولا تكون الحروف كلاما الا بالتقطيع والتأليف . وحسن الاشارة باليد والراس من تمام حسن البيان باللسان مع الذى يكون مع الاشارة من الدل والشكل والتفتل والتثنى و غير ذلك من الامور .

وقد اتفق لبعض خطباء العرب انهم خطبوا فكانت عماد خطبهم الاشارة لاغير . فمن ذلك ان مصعب بن الزبير لما قدم العراق صعد المنبر فقال بسم الله الرحمن الرحيم : طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ان فرعون علا فى الارض وجعل اهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحي نساءهم انه كان من المفسدين (واشار بيده نحو الشام) ونريد ان نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين (واشار بيده نحو الحجاز) ونمكن لهم فى الارض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون (واشار بيده نحو العراق) فكان لخطبته هذه وقع عظيم فى النفوس مع انه لم يأت فيها بشئ من اللفظ سوى انه قرأ القرآن واشار بيده اثناء قراءته .

ومن هذا القبيل ماذكروه من خطبة يزيد بن المقنع وذلك ان معاوية اراد ان يأخذ من الناس البيعة لابنه يزيد فلما اجتمع الناس وقامت الخطباء لبيعة يزيد واظهر قوم الكراهة قام رجل يقال له يزيد بن المقنع فاخترط من سيفه شبرا ثم قال هذا امير المؤمنين (واشار بيده الى معاوية) فان مات فهذا (واشار بيده الى يزيد) فمن أبى فهذا (واشار بيده الى سيفه) فقال له معاوية انت سيد الخطباء .

واعلم انه ليس للاشارة من ضابط يضبط انواعها تجاه المعانى فلا يمكن تخصيص نوع من الاشارة بمعنى من المعانى كأن يقال ان نوع كذا من الاشارة باليد اوبالمنكب اوبالحاجب يدل على معنى كذا من الكلام دون غيره اويقال ان الاشارة على الوجه الفلانى يجب ان تكون عند

قصد المعنى الفلانى دون غيره . بل الاشارة على اختلاف انواعها وتعدد صورها مشاعة بين انواع المعانى اى مغفلة عن الوضع بجاه المعانى وانما الامر فى استعمالها راجع الى ذوق الخطيب وعادته وحذقه ولباقته فلكل خطيب عادة فى الاشارة تخالف عادة غيره ومن هنا يقع التفاضل بين الخطباء فى كيفية استعمال الاشارة فكلما اوقع الخطيب هذه الاشارات فى مواقعها الملائمة لها من الكلام وابرزها بصور تناسب صور المعانى بحيث تكون متممة للمعنى وكاشفة له كان ذلك الخطيب احق بان يحرز قصب السبق فى ميدانها واجدر بان يعد المجلى فى مضمارها .

هذا هو الحكم العام الذى ينبغى ان نحكم به عند تفصيل انواع الاشارة وتبيين صورها الخاصة ولكن يمكن مع ذلك ان نذكر لبعض الاشارات مواقع خاصة من الكلام قد اصطلح جمهور الناس عليها فى مواضع خاصة حتى صار استعمال مثلها فى مثل تلك المواضع متعارفا بينهم ومألوفا لهم ولنذكر لك امثلة من ذلك فنقول قد جرت العادة ان المتكلم اذا ذكر الزمان الماضى اشار بيده الى خلف بان يرفع احدى يديه نحو كتفه مبسوطة او مقبوضة دون الابهام واذا ذكر المستقبل اشار بها الى الامام بان يمدها الى الامام مبسوطة او مقبوضة دون السبابة واذا ذكر الزمان الحاضر اشار بها الى تحت نحو قدميه واذا استفهم عن الزمان او المكان كأن يقول مثلا (متى جاؤا واين ذهبوا) مد يده مفتوحة الكف وحركها بحركة خفيفة افقية واذا تعجب من شئ قلب كفه او كفيه مفتوحة نحو السماء وقد ذكر الشيخ الاكبر فى كتابه محاضرة الابرار انه صلى الله عليه وسلم كان اذا تعجب قلب كفه كلها . ومما جرت به العادة ان المتكلم اذا ذكر الضرب بالسيف عمل بيده حركة كحركة يد الضارب بالسيف واذا ذكر الطعن بالرمح حركها كحركة يد الطاعن بالرمح واذا ذكر الكتابة بالقلم قبض انامله كما يقبض الكاتب بانامله على القلم وحرك يده كحركة يد الكاتب واذا ذكر شيأ من لبس الثياب عمل

بيديه كأنه يلبس ثوبا واذا سور كلامه باداة سور كأن يقول مثلاالناس كلهم اوجميعا اوقاطبة مديده ودارها من جهة اليمين الى جهة الشمال كأنه يصور بذلك الاحاطة والشمول . واما الرأس فقد جرت العادة برفعه قليلا عندالنفي كقول لا وبخفضه قليلا عند الجواب كقول نعم . واما انغاض الرأس اى تحريكه فهو اشارة الى التعجب والاستهزاء وقد ذكرالله تعالى ذلك عن كفار العرب حيث قال « فسينغضون اليك رؤسهم » اى فسيحركونها نحوك تعجبا واستهزاء وقد جرت العادة ايضا بان يعبس المتكلم ويقطّب بين عينيه اذا اخذ باللوم والزجر والتقريع وكذلك اذا اخذ بالتهديد والترهيب وان يجعل وجهه طلقا بشوشا اذااخذ بالتأهيل والترحيب كماجرت العادة برفع المنكبين وخفضهما عند عدم الاكتراث والمبالات . هذا وانما اوردنا هذهالجملة من صورالاشارة على طريق المثال والافصور الاشارة كثيرة لاتحصى والامر فيها كماقلنا آنفا راجع الى ذوق المتكلم وعادته ومهارته كما لايخفى

وقد خالف بعضهم في لزوم الاشارة والحركة عندالخطبة كما روى ذلك ابوشمر عن معمر ابي الاشعث قال الجاحظ وكان ابوشمر هذا اذا خطب لم يحرك يده ولامنكبيه ولم يقلب عينيه ولم يحرك رأسه حتى كان كلامه كأنما يخرج من صدع صخرة وكان يقضي على صاحب الاشارة بالافتقار الى ذلك وبالعجز عن بلوغ ارادته وكان يقول ليس من المنطق ان تستعين عليه بغيره حتى كلمه ابراهيم بن سيارالنظام عندايوب ابن جعفر فاضطره بالحجة وبالزيادة في المسألة حتى حرك يديه وحل حبوته وحبا اليه حتى اخذ بيديه ففي ذلك اليوم انتقل ايوب من قول ابي شمر الى قول ابراهيم . قال وكان الذي غرّ اباشمر وموّدله هذا الرأي ان اصحابه كانوا يستمعون منه ويسلمون له ويميلون اليه ويقبلون كل مايورد عليهم ويثبته عندهم فلما طال عليه توقيرهم له وترك مجاذبتهم اياه وخفت مؤنة الكلام عليه نسي حال منازعةالاكفاء ومجاذبة الخصوم .

المبحث السادس

في

المخصرة والعصا

اعلم ان الكلام على المخصرة معدود من تتمة الكلام على الاشارة لان المخصرة ليست الا صلة لليد التي بها تكون الاشارة ولذا جئنا بهذا البحث بعد بحث الاشارة .

من عادة خطباء العرب اخذ المخصرة للاشارة وخدّ وجه الارض بها اثناء الكلام وربما كانت عصا وربما كانت قناة وكذلك من عادتهم ايضا الاتكاء على اطراف القسي والاعتماد عليها اثناء الخطابة .

قال كثير في خدّ وجه الارض بالمخاصر

اذا قرعوا المنابر ثم خطوا   باطراف المخاصر كالغضاب

وقال ابو عبيدة سأل معاوية شيخا من بقايا العرب أي العرب رأيته اضخم شأنا قال حصين بن حذيفة رأيته متوكئا على قوسه يقسم في الحليفين اسد وغطفان . وقال جرير بن الخطفى في حمل القناة

من للقناة اذا ماعي قائلها   والاعنة ياعمرو بن عمار

ومن هذا القبيل قول ابي المجيب الربعي حيث يقول « لا تزال تحفظ اخاك حتى يأخذ القناة فعند ذلك يفضحك او يمدحك » ومعنى قوله حتى يأخذ القناة اى حتى يقوم خطيبا فاذا قام يخطب فقد قام المقام الذى لابد من ان يخرج منه مذموما او محمودا . وقال ابو اليقظان كانوا يقولون اخطب بني تميم البعيث اذا اخذ القناة فهزها ثم اعتمد بها على الارض ثم رفعها . وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم انه جاء البقيع ومعه مخصرة

فجلس فنكت بهاالارض ثم رفع رأسه فقال ما من نفس منفوسة الاوقد كتب مكانها من الجنة اوالنار . وهو من حديث ابى عبدالرحمن السلمى وقوله منفوسة معناه مولودة يقال نفس فلان اى ولد فهو منفوس ويقال ورث فلان هذاقبل ان ينفس اى قبل ان يولد . ومما يدلك على استحسانهم شأن المخصرة حديث عبدالله بن انيس ذى المخصرة وكان النبى صلى الله عليه وسلم اعطاه مخصرة فقال تلقانى بها فى الجنة وهو مهاجر عقبى انصارى وهو ذوالمخصرة فى الجنة . وفى الحديث ايضا ان رجلا ألح على النبى صلى الله عليه وسلم فى طلب بعض المغنم وكانت بيده مخصرة فدفعه بها فقال يارسول الله اقصنى فلما كشف النبى له عن بطنه احتضنه وقبل بطنه والدليل على انهم كانوا يتخذون المخاصر فى مجالسهم كما يتخذون القنا والقسى فى المحافل قول الشاعر فى بعض الخلفاء

فى كفه خيزران ريحها عبق من كف اروع فى عرنينه شمم

يغضى حياء ويغضى من مهابته فما يكلم الا حين يبتسم

وقال الآخر

مجالسهم خفض الحديث وقولهم اذا ماقضوا فى الامر وحى المخاصر

وقال الآخر

يصيبون فصل القول فى كل خطبة اذا وصلوا ايمانهم بالمخاصر

ومما يصح ان يكون دليلا فى هذا الباب ماحدث به بعضهم اذ قال كنا منقطعين الى رجل من كبار اهل العسكر وكان لبثنا عنده يطول فقال بعضنا ان رأيت ان تجعل لنا امارة اذا ظهرت لنا حفظنا ولم نتعبك بالقعود فقد قال اصحاب معاوية لمعاوية مثل الذى قلنا لك فقال امارة ذلك ان اقول اذا شئتم وقيل ليزيد مثل ذلك فقال اذا قلت على بركة الله وقيل لعبدالملك مثل ذلك فقال اذا القيت الخيزرانة من يدى قالوا فأى شئ تجعل لنا اصلحك الله قال اذا قلت ياغلام الغداء .

قال الجاحظ وبالناس حفظك الله اعظم الحاجة الى ان يكون لكل جنس منهم سيما ولكل صنف منهم حلية وسمة يتعارفون بها قال وعند العرب العمة واخذ المخصرة من السيما وقد لا يلبس الخطيب الملحفة ولا الجبة ولا القميص ولا الرداء والذى لا بد منه العمة والمخصرة وربما قام فيهم وعليه ازاره قد خالف بين طرفيه وربما قام فيهم وعليه عمامة وفى يده مخصرة وربما كان قضيبا وربما كانت العصا وربما كانت قناة قال وربما كان العود نبعا وربما كان شوحطا وربما كان من أبنوس ومن غرائب الخشب ومن كرائم العيدان ومن تلك الملس المصفاة وربما كانت لب غصن كريم فان للعيدان جواهر كجواهر الرجال ولولا ذلك لما كانت فى خزائن الخلفاء والملوك. قال وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب بالقضيب وكفى بذلك دليلا على عظم غنائها وشرف حالها يعنى العصا او المخصرة قال وعلى ذلك الخلفاء وكبراء العرب من الخطباء وقد كان مروان بن محمد آخر خلفاء بنى امية حين احيط به دفع البرد والقضيب الى خادم وامره ان يدفنهما فى بعض تلك الرمال ودفع اليه بناته وامره ان يضرب عنقها فلما اخذ الخادم فى الاسرى قال ان قتلتموه ضاع ميراث النبى صلى الله عليه وسلم فامنوه على ان يسلم لهم ذلك. وفى الخبر ان ابابكر رضى الله عنه أفاض من جمع وهو يحرش بعيره بمحجنه يحرش بعيره اى يحك ظهره بالمحجن ليسرع والمحجن العصا المنعطفة الرأس. وفى الحديث المرفوع انه طاف بالبيت يستلم الاركان بمحجنه ثم يجذبه اليه يريد بذلك تحريكه. وكانت العنزة التى تحمل بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وربما جعلوها قبلة اشهر واذكر من ان يحتاج فى تثبيتها الى ذكر الاسناد والعنزة هى العصا الطويلة التى فى اسفلها زج.

قال الجاحظ ومن شأن المتكلمين ان يشيروا بايديهم واعناقهم وحواجبهم فاذا اشاروا بالعصا فكأنهم قد وصلوا بايديهم ابدياً اخر ويدل على ذلك قول الانصارى الذى يقول

وسارت لنا سيارة ذات سؤدد بكوم المطايا والخيول الجماهر
يؤمون ملك الشأم حتى تمكنوا ملوكا بارض الشأم فوق المنابر
يصيبون فصل القول فى كل خطبة اذا وصلوا ايمانهم بالمخاصر

وايضا ان حمل العصا والمخصرة دليل على التأهب للخطبة والتهيؤ للاطناب والاطالة وذلك شىء خاص لخطباء العرب ومقصور عليهم ومنسوب اليهم حتى انهم ليذهبون فى حوائجهم والمخاصر فى ايديهم الفا لها وتوقعا لبعض مايوجب حملها والاشارة بها قال ولايكون ذلك من عجزهم عن الكلام واستعانتهم بالمخاصر عليه كما زعمت الشعوبية وانما يكون العجز والذلة فى دخول الخلل والنقص على الجوارح فاما الزيادة فيها فالصواب فيه وهل ذلك الا كتعظيم كور العمامة واتخاذ القضاة القلانس العظام فى حمارة القيظ واتخاذ الخلفاء العمائم على القلانس فان كانت القلانس مكشوفة زادوا فى طولها وحددة رؤسها حتى تكون فوق قلانس جميع الامة وكل مازادوه فى الابدان ووصلوه فى الجوارح فهو زيادة فى تعظيم تلك الابدان . والعصى والمخاصر مع الذى عددناه باب واحد فى المعنى . قال و المعنى قد يوقع بالقضيب على اوزان الاغانى والمتكلم قد يشير برأسه ويده على اقسام كلامه وتقطيعه ففرقوا ضروب الحركات على ضروب الالفاظ وضروب المعانى ولوقبضت يد المتكلم ومنع حركة رأسه لذهب ثلثا كلامه وقال عبدالملك بن مروان لو القيت الخيزرانة من يدى لذهب شطر كلامى . واراد معاوية سحبان وائل على الكلام وقد كان اقتضبه اقتضابا فلم ينطق حتى اتوه بمخصرة فرطلها بيده فلم تعجبه حتى اتوه بمخصرته من بيته

وقد نقمت الشعوبية على العرب هذه العادة اعنى اخذها المخاصر فى الخطب وعابت هذا الديدن وفندت هذا الرأى اشد التفنيد جريا فى ذلك على ماجبلت عليه تجاه العرب من الحسد و البغضاء . والشعوبية اناس من

العجم يتعصبون للعجمية ضد العربية وينقمون على العرب مفاخرهم و ينكرون مآثرهم ومالهم من الميزة فى براعة المنطق وحسن البيان وقد ذكر العلماء شبههم وردوا عليهم بمالاحاجة بنا الى ذكره هنا .

المبحث السابع

فى

انواع الخطب عند العرب

لما نظرت فى كتاب الجاحظ « البيان والتبيين » وطالعته وتدبرته من اوله الى آخره تبين لى ان انواع الخطب عند العرب عشرة وهى هذه (١) خطبة الجمعة (٢) خطبة العيد (٣) خطبة الصلح (٤) خطبة الحمالة (٥) خطبة يوم الحفل (٦) خطبة المواهب (٧) خطبة بين السماطين (٨) خطبة التأبين (٩) خطبة الموسم (١٠) خطبة النكاح . فاما خطبة الجمعة والعيد فهى للخلفاء والامراء ومن ينوب عنهم والغالب عليها ان تكون سياسية دينية اجتماعية وبالجملة فان خطب الجمع والاعياد عامة تتناول كل امر من امور الدين والدنيا. ولا يفهم من هذا ان خطب الخلفاء والامراء مقصورة على الجمع والاعياد بل هم يخطبون عند مسيس الحاجة الى الخطبة فى أى يوم شاؤا وأى وقت ارادوا وقد قال عبدالملك بن مروان لما قيل له عجل عليك الشيب يا امير المؤمنين « وكيف لا يعجل على وانا اعرض عقلى على الناس فى كل جمعة مرة او مرتين » يعنى خطبة الجمعة وبعض مايعرض من الامور . واليك خطبة للامام على رضى الله عنه . ان سفيان بن عوف الازدى ثم الغامدى اغار على الانبار فى زمن على بن ابى طالب رضى الله عنه وكان ابن حسان عاملا عليها اذ ذاك فقتله سفيان وازال تلك الخيل عن مسالحها فخرج على رضى الله عنه حتى قام على السدة فحمدالله واثنى عليه وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال :

اما بعد فان الجهاد باب من ابواب الجنة فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذلة وشمله البلاء والزمه الصغار وسيم الخسف ومنع النصف ألاوانى قد دعوتكم الى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهارا وسرا واعلانا وقلت لكم اغزوهم قبل ان يغزوكم فوالله ماغزى قوم قط فى عقر دارهم الاذلوا فتوا كلتم وتخاذلتم وثقل عليكم قولى واتخذتموه وراءكم ظهريا حتى شنت عليكم الغارات . هذا اخو غامد قد وردت خيله الانبار وقتل ابن حسان البكرى وازال خيلكم عن مسالحها وقتل منكم رجالا صالحين وقد بلغنى ان الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والاخرى المعاهدة فينتزع احجالها وقلبها ورعثها ثم انصرفوا فارين ما كلم رجل منهم كلماً فلو ان امرأ مسلماات من بعدها اسفا ماكان عندى ملوما بل كان عندى بها جديرا فيا عجبا من جد هؤلاء القوم فى باطلهم وفشلكم عن حقكم فقبحا لكم وترحا حين صرتم غرضا يرمى وفيئا ينهب يغار عليكم ولاتغيرون وتغزون ولاتغزون ويعصى الله وترضون فاذا امرتكم بالسير اليهم فى الحر قلتم حرارة القيظ امهلنا حتى ينسلخ عنا الحر واذا امرتكم بالسير فى البرد قلتم امهلنا حتى ينسلخ عنا القر كل هذا فرارا من الحر والقر فاذا كنتم من الحر والقر تفرون فانتم والله من السيف افر يا اشباه الرجال ولارجال ويا احلام الاطفال وعقول ربات الحجال وددت ان الله اخرجنى من بين ظهرانيكم وقبضنى الى رحمته من بينكم والله لوددت انى لم اركم ولم اعرفكم معرفتكم والله حرت ندما وورتم صدرى غيظا وجرعتمونى الموت انفاسا وافسدتم علىّ رأيى بالعصيان والخذلان حتى قالت قريش ان ابن ابى طالب شجاع ولكن لاعلم له بالحرب لله ابوهم هل منهم احد اشد لها مراسا واطول لها تجربة منى لقد مارستها ومابلغت العشرين فيها وقد نيفت على الستين ولكنه لارأى لمن لايطاع . فقام رجل من الازد يقال له فلان بن عفيف ثم

اخذ بيد اخ له فقال يا امير المؤمنين انا واخي كما قال الله تعالى ربي انى لا املك الا نفسي واخي فمرنا بامرك فوالله لنضربن دونك وان حال دونك جمر الغضا وشوك القتاد . فاثنى عليهما خيرا وقال لهما اين تقعان مما اريد ثم نزل.

وخطبة اخرى له بهذا الاسناد في شبيه بهذا المعنى قام فيهم خطيبا فقال :

ايها الناس المجتمعة ابدانهم المختلفة اهواؤهم كلامكم يوهي الصم الصلاب وفعلكم يطمع فيكم عدوكم تقولون في المجالس كيت وكيت فاذا جاء القتال قلتم حيدي حياد. ماعزت دعوة من دعاكم ولا استراح قلب من قاساكم اعاليل باضاليل وسألتموني التأخير دفاع ذي الدين المطول هيهات لا يمنع الضيم الذليل ولا يدرك الحق الا بالجد . أى دار بعد داركم تمنعون ام مع أى امام بعدي تقاتلون المغرور والله من غررتموه ومن فاز بكم فاز بالسهم الاخيب اصبحت والله لا اصدق قولكم ولا اطمع في نصرتكم فرق الله بيني وبينكم واعقبني بكم من هو خير لي منكم لوددت ان لي بكل عشرة منكم رجلا من بني فراس بن غنم صرف الدينار بالدرهم .

وانما اوردنا هاتين الخطبتين لتكونا دليلا على ان خطب الخلفاء والامراء غير مقصورة على الجمع والاعياد بل هم يخطبون عند مسيس الحاجة في كل وقت .

(خطبة الصلح)

واما خطب الصلح فهي الخطب التي يخطبونها اذا تهادنوا بعد حرب فيسلون فيها السخائم ويمحون اثر الضغائن ويدعون الى التواصل وهذه خاصة بالحروب التي كانت تقع بين قبائل العرب اذ الصلح بينهم وبين

غيرهم من الامم لايقع على هذا الشكل ومثل خطب الصلح خطب الحمالة ايضا فان الحمالة كسحابة هى الدية يحملها قوم عن قوم فاذا ارادوا حمل دية قتيل قاموا وخطبوا بمثل خطب الصلح . ورب قائل يقول يفهم من هذا ان موضوع خطبة الحمالة كموضوع خطبة الصلح واذا اتفقتا فى الموضوع فلماذا جعلتهما نوعين ولم تعدهما نوعا واحدا قلت لئن اتفقتا فى الموضوع فقد اختلفتا فى السبب فان خطب الصلح مسببة عن الحرب فتكون بعد الحرب بخلاف خطب الحمالة فانها لم تسبق بحرب وانما تكون لابقاء السلم واستمراره فانهم انما يقصدون بحمل دية القتيل منع وقوع الحرب فالسبب الداعى الى هذه غير السبب الداعى الى تلك على ان موضوعيهما مختلفان ايضا من بعض الوجوه وان كانت بينهما مشابهة كما لايخفى . ومن عاداتهم الاطالة فى مثل هذه الخطب لان المقام داع الى الاطالة ألا ترى الى قيس ابن خارجة بن سنان لما ضرب بصفيحة سيفه مؤخرة راحلتى الحاملين فى شأن حمالة داحس والغبراء وقال مالى فيها ايها العشمتان قالا بل ما عندك قال عندى قرى كل نازل ورضا كل ساخط وخطبة من لدن تطلع الشمس الى ان تغرب آمر فيها بالتواصل وانهى عن التقاطع قالوا فخطب يوما الى الليل فما اعاد فيها كلمة ولامعنى . فقيل لابى يعقوب راوى هذا الخبر هلا اكتفى بالامر بالتواصل عن النهى عن التقاطع أوليس الامر بالصلة هو النهى عن القطيعة قال أوما علمت ان الكناية والتعريض لا يعملان فى العقول عمل الافصاح والكشف .

(خطبة المواهب)

واما خطب المواهب فلم أر فى كلام الجاحظ مايكشف الغطاء عن وجه المراد بها . على ان الجاحظ لم يتكلم فى كتابه عن هذه الانواع التى ذكرتها للخطب وانما جاءت هذه الاسماء عرضا فى تضاعيف كلامه فالتقطتها من اماكن متفرقة من كتابه ولعل المراد بخطب المواهب

الخطب التي يستوهبون فيها الهبات ويطلبون الاعطيات عند وفودهم على الخلفاء والامراء كما وقع لهلال بن وكيع وزيد بن جبلة والاحنف ابن قيس عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد ذكر بشار بن عبدالحميد عن ابي ريحانة قال وفد هلال بن وكيع والاحنف بن قيس وزيد بن جبلة على عمر فقال هلال بن وكيع يا اميرالمؤمنين انا لباب من خلفنا وغرة من وراءنا من اهل مصرنا فانك ان تصرفنا بالزيادة في اعطياتنا والفرائض لعيالاتنا يزيد ذلك الشريف تاميلا وتكن لذوى الاحساب ابا وصولا فانا ان نكن مع ما عمت به من فضائلك وندلى من اسبابك كالجد الذى لايحل ولايرحل نرجع بانف مصلومة وجدود عاثرة فمحنا واهلينا بسجل من سجالك المترعة. وقام زيد بن جبلة فقال : ياامبرلمؤمنين سود الشريف واكرم الحسيب وازرع عندنا من اياديك مانسد به الخصاصة ونطرد به الفاقة فانا بقف من الارض يابس الاكناف مقشعر الذروة لاشجر فيه ولا زرع وانا من العرب اليوم اذ أتيناك بمرأى ومسمع. فقام الاحنف فقال : يا اميرالمؤمنين ان مفاتيح الخير بيدالله والحرص قائد الحرمان فاتق الله فيما لايغني عنك يوم القيامة قيلا ولا قالا واجعل بينك وبين رعيتك من العدل والانصاف شيأ يكفيك وفادة الوفود واستماحة المحتاج فان كل امرئ انما يجمع في وعائه الا الاقل ممن عسى ان تقتحمه الاعين وتخونهم الالسن فلايوفد اليك ياامير المؤمنين.

ومما يصح ان يكون من خطب المواهب خطبة الهذيل بن زفر عند يزيد بن المهلب قال ابو الحسن دخل الهذيل بن زفر الكلابي على يزيد بن المهلب في حمالات لزمته ونوائب نابته فقال اصلحك الله انه قد عظم شأنك عن ان يستعان عليك ولست تصنع شيأ من المعروف الا وانت اكبر منه وليس العجب بان تفعل ولكن العجب بان لاتفعل. فقال يزيد حاجتك فذكرها فامر بها وامر له بمائة الف درهم فقال اما الحمالات فقد قبلتها واما المال فليس هذا موضعه.

(خطبة يوم الحفل)

واما خطب يوم الحفل فهي الخطب التي يخطبونها اذا احتشدوا لامر قد اهمهم ونازلة المت بهم ونائبة نابتهم وغير ذلك من الامور فيوم الحفل هو يوم الاجتماع وهذا اشبه شئ بما يسمى اليوم « متينك » في اللغات الاجنبية ولاشك ان يوم الحفل غير الموسم لان اجتماعهم في الموسم لا يكون الا في وقت معين خاص بخلاف اجتماعهم في يوم الحفل فلا يقال ان خطب الموسم داخلة في خطب يوم الحفل . وايضا ان خطب الموسم عامة لاتختص بامر من الامور بخلاف خطب يوم الحفل فانها لاتكون الا في امر خاص من الامور . وقد ذكرنا لك عند الكلام على الاشارة ان معاوية اراد ان يأخذ من الناس البيعة لابنه يزيد فاجتمع الناس وقامت الخطباء فكان ذلك يوم حفل وكانت الخطب فيه خطب يوم الحفل وقد ذكرنا لك هناك ايضا خطبة يزيد بن المقنع وهي خطبة اشارية ومما يصح ان يكون من خطب يوم الحفل الخطبة التي خطبها ابوبكر الصديق رضي الله عنه يوم السقيفة وذلك ان الانصار والمهاجرين اجتمعوا بعدوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم في سقيفة بني ساعدة يتنازعون امر الخلافة فقام حباب بن المنذر من الانصار فقال انا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب ان شئتم كررناها جذعة. منا امير ومنكم امير فان عمل المهاجري شيأ في الانصار رد ذلك عليه الانصاري وان عمل الانصاري شيأ في المهاجري رد ذلك عليه المهاجري . فاراد عمر الكلام فقال ابوبكر على رسلك نحن المهاجرون اول الناس اسلاما واوسطهم دارا واكرم الناس احسابا واحسنهم وجوها واكثر الناس ولادة في العرب وامسهم رحما برسول الله صلى الله عليه وسلم اسلمنا قبلكم وقدمنا في القرآن عليكم فانتم اخواننا في الدين وشركاؤنا في الفئ وانصارنا على العدو آويتم

ونصرتم وآسيتم فجزاكم الله خيرا نحن الامرا وانتم الوزراء ولا تدين العرب الا لهذا الحي من قريش وانتم تخفوقون ان تنفسوا على اخوانكم من المهاجرين ماساق الله اليهم . وقال ان هذا الامر ان تطاولت اليه الخزرج لم تقصر عنه الاوس وان تطاولت اليه الاوس لم تقصر عنه الخزرج وقد كان بين الحيين قتلى لا تنسى وجراح لا تداوى فان نعق منكم ناعق فقد جاس بين لحيي اسد يضغمه المهاجرى ويجرحه الانصارى. قال ابن دأب فرماهم والله بالمسكتة حتى قالوا انا قد رضينا . فيوم السقيفة يوم حفل وخطبة كل من حباب بن المنذر وابى بكر الصديق من خطب يوم الحفل .

(خطبة بين السماطين)

واما الخطب بين السماطين فليس في كتاب الجاحظ مابينها والظاهر انها الخطب التي يخطبونها بين القوم وقد اصطفوا صفين متقابلين فان سماط القوم هو صفهم يقال قام القوم حوله سماطين اى صفين ويقال مشى بين السماطين اى بين الصفين من القوم . وقيل السماط هو صف الجنود الذين يتقدمون بين يدى الملك وعليه فالخطب بين السماطين هي الخطب التي يخطبونها عند الملوك والامراء قياما بين صفين من الجنود قد اصطفوا بين يدى الملك او الامير . واليك ماقاله سعيد بن مسلم والى ارمينية قال كنت واليا بارمينية فغبر ابو زهمان العلائى على بابى اياما فلما وصل الى مثل بين يدى قائما بين السماطين فقال والله ان لاعرف اقواما لو علموا ان سف التراب يقيم من أود اصلابهم لجعلوه مسكة لازما فيهم ايثارا للتنزه عن عيش رقيق الحواشى اما والله انى لبعيد الوثبة بطيء العطفة انه والله مايثنيني عليك الا مثل مايصرفني عنك ولان اكون مقلا مقربا احب الى من ان اكون مكثرا مبعدا والله مانسأل عملا لانضبطه

ولا مالا الا نحن اكثر منه وهذا الامر الذى صار اليك فى يديك كان فى يد غيرك فامسوا والله حديثا ان خيرا فخير وان شرا فشر فتحبب الى عباد الله بحسن البشر ولين الجانب فان حب عباد الله موصول بحب الله وبغضهم موصول ببغض الله لانهم شهداء الله على خلقه ورقباؤه على من اعوج عن سبيله .

ومما يدل على ان الملوك والامراء كانوا اذ ذاك اذا قعدوا فى مجالسهم اقاموا حولهم سماطين اى صفين من الجنود ماذكره الجاحظ فى كتاب البيان قال حدثنى ابراهيم السندى فقال لما اتى عبد الملك بن صالح وفد الروم وهو فى البلاد اقام على رأسه رجالا فى السماطين لهم قصر وهام ومناكب واجسام وشوارب وشعور فبيناهم قيام يكلمونه ومنهم رجل وجهه فى قفا البطريق اذ عطس عطسة ضئيلة فلحظه عبد الملك فلم يدر اى شيء انكر منه فلما مضى الوفد قال له ويلك هلا اذا كنت ضيق المنخر كز الخيشوم اتبعتها بصيحة تخلع بها قلب العلج . فبهذا وبما تقدم من حديث والى ارمينية يتبين لنا ماهو المراد بالسماطين وماهى خطبة بين السماطين

(خطبة التأبين)

واما خطب التأبين فاعلم ان التأبين هو الثناء على الميت كما ان التقريظ هو الثناء على الحى فخطب التأبين هى الخطب التى يقومون فيها على قبر من مات فيندبونه ويثنون عليه بما هو اهله ويعددون محاسنه فيبكونه ويستبكون عليه وكان ذلك من عادتهم قديما . فمن ذلك تأبين عائشة لابيها رضى الله عنهما وذلك انه لما توفى ابوبكر رضى الله عنه قامت عائشة على قبره فقالت نضر وجهك وشكر لك صالح سعيك فلقد كنت للدنيا مذلا بادبارك عنها وللآخرة معزا باقبالك عليها وان كان لاجل الارزاء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رزؤك واكبر المصائب فقدك وان

كتـاب الله ليعد بجميل العزاء حسن العوض منك فانجز من الله موعده فيك بالصبر عنك واستخاصه بالاستغفار لك .

وقامت فرغانة بنت اوس بن حجر على قبر الاحنف بن قيس وهى على راحلة فقـالت انا لله وانا اليه راجعون رحمك الله ابابحر من مجن فى جنن ومدرج فى كفن فوالذى ابتلانى بفقدك وبلغنا يوم موتك لقد عشت حميدا ومت فقيدا ولقد كنت عظيم الحلم فاضل السلم رفيع العماد وارى الزناد منيع الحريم سليم الاديم وان كنت فى المحافل لشريفا وعلى الارامل لعطوفا ومن الناس لقريبا وفيهم لغريبا وان كنت لمسودا والى الخلفاء لموفدا وان كانوا لقولك لمستمعين ولرأيك لمتبعين . ثم انصرفت .

وحدث اسماعيل بن علية قال حدثنا زياد بن ابى حسان انه شهد عمر بن عبدالعزيز حين دفن ابنه عبدالملك فلما سوى عليه قبره بالارض وجعلوا على قبره خشبتين من زيتون احداهما عند رأسـه والاخرى عند رجليه ثم جعل قبره بينه وبين القبلة واستوى قائما واحاط به الناس قال رحمك الله يابنى فقد كنت برا بابيك ومازلت مذ وهبك الله لى بك مسرورا ولا والله ما كنت قط مسرورا بك ولا ارجى لحظى من الله فيك منذ وضعتك فى الموضع الذى صيرك الله اليه فغفر الله لك ذنبك وجازاك باحسن عملك وتجاوز عن سيآتك ورحم الله كل شافع يشفع لك بخير من شاهد وغائب رضينا بقضاء الله وسلمنا لامره فالحمد لله رب العالمين . ثم انصرف .

ومات ذر بن ابى ذر الهمدانى من بنى مرهبة وهو ذر بن عمر بن ذر فوقف ابوه على قبره فقال ياذر والله مابنا اليك من فاقة وما بنا الى احد سوى الله من حاجة ياذر شغلنى الحزن لك عن الحزن عليك ثم قال اللهم انك وعدتنى بالصبر على ذر صلواتك ورحمتك اللهم وقد وهبت ماجعلت لى من اجر على ذر لذر فلا تعرفه قبيحا من عمله اللهم وقد

وهبت له اساءته الى فهب لى اساءته الى نفسه فانك اجود واكرم . فلما انصرف عنه التفت الى قبره فقال يا ذر قد انصرفنا وتركناك ولو اقمنا ما نفعناك .

واصيبت اعرابية بابنها وهى حاجة فلما دفنته قامت على قبره وقالت والله يا بنى لقد غذوتك رضيعا وفقدتك سريعا وكأنه لم يكن بين الحالين مدة التذ بعيشك فيها فاصبحت بعد النضارة والغضارة ورونق الحياة والتنسم فى طيب روائحها تحت اطباق الثرى جسدا هامدا ورفاتا سحيقا وصعيدا جرزا . اى بنى لقد سحبت الدنيا عليك اذيال الفنا واسكنتك دار البلى ورمتنى بعدك نكبة الردى . اى بنى لقد اسفرلى عن وجه الدنيا صباح داج ظلامه ثم قالت اى رب ومنك العدل ومن خلقك الجور وهبته لى قرة عين فلم تمتعنى به كثيرا بل سلبتنيه وشيكا ثم امرتنى بالصبر ووعدتنى عليه الاجر فصدقت وعدك ورضيت قضاءك فرحم الله من ترحم على من استودعته الردم ووسدته الثرى اللهم ارحم غربته وآنس وحشته واسترعورته يوم تنكشف الهنات والسوآت . فلما ارادت الرجوع الى اهلها قالت اى بنى انى قد تزودت لسفرى فليت شعرى مازادك لبعد طريقك ويوم معادك اللهم انى اسألك له الرضا برضائى عنه ثم قالت استودعتك من استودعك فى احشائى جنينا .

واثكل الوالدات ما امض حرارة قلوبهن واقاق مضاجعهن واطول ليلهن واقصر نهارهن واقل انسهن واشد وحشتهن وابعدهن من السرور واقربهن من الاحزان .

(خطبة الموسم)

الموسم هو المجتمع سمى به لانه معلم يجتمع اليه وقد كثر استعماله لوقت اجتماع الحاج وسوقهم فى مكة . ولقد كان للعرب اسواق يقيمونها

فى اوقات معينة وينتقلون من بعضها الى بعض للبيع والشراء وكان يحضرها العرب بماعندهم من المآثر والمفاخر ويتناشدون الاشعار ويلقون الخطب ويتحاكمون فيها الى قضاة نصبوا انفسهم لنقد الشعر وبيان غثه من سمينه وتفضيل شاعر على آخر فكانوا يفضلون من سمات عبارته وكان لها النصيب الاوفر من الفصاحة وحسن البيان مع التحرز من العيب والابتعاد من النقص ويتخيرون فى خطبهم واشعارهم من لغات العرب ماحلا فى الذوق وخف على السمع فكانت هذه الاسواق اندية علمية ومجتمعات لغوية ادبية توصل بها العرب الى تهذيب لغتهم لفظا واسلوبا وجعل لغةالشعر والخطابة لغة واحدة بين جميع القبائل . فمن هذه الاسواق الجنة وذوالمجاز وعكاظ واشهرها سوق عكاظ وهى موسم للعرب من اعظم مواسمهم وعكاظ نخل فى واد بين نخلة والطائف من بلاد الحجاز وبينه وبين الطائف عشرة اميال فكانوا يتبايعون فى هذه السوق ويتعاكظون ويتفاخرون ويتحاجون وينشد الشعراء ماتجدد لهم وقد كثر ذلك فى اشعارهم كقول حسان

سأنشر ان حييت لهم كلاما ينشر فى الجنة مع عكاظ

وفى عكاظ كان يخطب كل خطيب مصقع وكان كل شريف انما يحضر سوق بلده الا سوق عكاظ فانهم كانوا يتوافون بها من كل جهة فمن كان له اسير سعى فى فدائه ومن كانت له حكومة ارتفع الى الذى يقوم بأمر الحكومة . وكانت هذه السوق تقوم من اول ذى القعدة الى العشرين منه على المشهور واتخذت عكاظ سوقا بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة وتركت بعد ان نهبها الخوارج سنة تسع وعشرين ومائة .

فخطب الموسم هى الخطب التى كانوا يخطبونها فى هذه الاسواق وغيرها من المواسم . وكانوا يخطبون فى الموسم وهم على رواحلهم قال ابو عبيدة وكانت العرب تخطب على رواحلها وكذلك روى النبي صلى الله

عليه وسلم عن قس بن ساعدة على ما ذكره ابن العربي في المسامرات حيث قال ان الجارود بن عبدالله لما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم في وفد عبدالقيس فاسلم قال له النبي صلى الله عليه وسلم يا جارود هل في جماعة وفد عبدالقيس من يعرف لنا قسا قال كلنا نعرفه يا رسول الله وانا من بين قومي كنت اقفو اثره واطلب خبره واخذ يصف للنبي صلى الله عليه وسلم قسا وانشد في آخر كلامه ابياتا فلما اتمها حتى قال له النبي صلى الله عليه وسلم على رسلك ياجارود فلست انساه بسوق عكاظ على جمل له اورق وهو يتكلم بكلام موثق ماأظن انى احفظه فهل فيكم من يحفظ لنا منه شيأ . معاشر المهاجرين والانصار فوثب ابوبكر رضي الله عنه قائما وقال يارسول الله انى احفظه ثم ذكر كلامه وسنذكر هذه الخطابة في محلها .

وقد خطب النبي صلى الله عليه وسلم خطبة حجة الوداع في عرفة وهو على راحلته كما ذكر ذلك ابن العربي ايضا حيث قال عند ذكر حجة الوداع حتى اذا زالت الشمس امر صلى الله عليه وسلم بناقته القصوى فرحلت له ثم اتى بطن الوادى فخطب الناس على راحلته . وقد ذكر الجاحظ هذه الخطبة وهي هذه .

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب اليه ونعوذ بالله من شرور انفسنا ومن سيآت اعمالنا من يهدالله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له واشهد ان لااله الاالله وحده لاشريك له واشهد ان محمدا عبده ورسوله اوصيكم عبادالله بتقوى الله واحثكم على طاعته واستفتح بالذى هو خير .

اما بعد ايهاالناس اسمعوا مني ابين لكم فانى لاادرى لعلى لاالقاكم بعد عامى هذا في موقفى هذا . ايهاالناس ان دماءكم واموالكم حرام عليكم الى ان تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ألا هل بلغت اللهم اشهد فمن كان عنده امانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها . وان ربا

الجاهلية موضوع وان اول ربا ابدأ به رباعمى العباس بن عبدالمطلب وان دماء الجاهلية موضوعة وان اول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة [*] ابن الحارث بن عبدالمطلب وان مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية . والعمد قود وشبه العمد ماقتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير فمن زاد فهو من اهل الجاهلية . ايها الناس ان الشيطان قد يئس ان يعبد فى أرضكم هذه ولكنه قد رضى ان يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من اعمالكم . ايها الناس ان النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ماحرم الله . وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض وان عدة الشهور عند الله اثنى عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق الله السموات والارض منها اربعة حرم ثلاثة متواليات وواحد فرد ذوالقعدة وذوالحجة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان ألاهل بلغت اللهم اشهد . ايها الناس ان لنسائكم عليكم حقا ولكم عليهن حق لكم عليهن ان لايوطئن فرشكم غيركم ولايدخلن احدا تكرهونه بيوتكم الا باذنكم ولاياتين فاحشة فان فعلن فان الله قد اذن لكم ان تعضلوهن وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح فان انتهين واطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف وانما النساء عندكم عوان لايملكن لانفسهن شيأ اخذتموهن بامانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرا ألاهل بلغت اللهم اشهد . ايها الناس انما المؤمنون اخوة ولايحل لامرىء مال اخيه الا عن طيب نفس منه ألا هل بلغت اللهم اشهد فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض فانى قد تركت فيكم ما ان اخذتم به لم تضلوا بعده كتاب الله ألاهل بلغت اللهم اشهد . ايها الناس ان ربكم

[*] قوله دم عامر بن ربيعة كان عامر مسترضعا فى بنى سعد بن بكر بن هوازن فقتله هذيل وذكر النسابون انه كان صغيرا يحبو امام البيوت وكان اسمه آدم فاصابه حجر عابر او سهم من غرب من يد رجل من بنى هذيل فمات .

واحد وان اباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب اكرمكم عند الله اتقاكم وليس لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى ألا هل بلغت اللهم اشهد . قالوا نعم قال فليبلغ الشاهد الغائب . ايها الناس ان الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا يجوز لوارث وصيته ولا يجوز وصيته في اكثر من الثلث والولد للفراش وللعاهر الحجر من ادعى الى غير ابيه اوتولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل والسلام عليكم ورحمة الله .

ومن خطب الموسم خطبة قس بن ساعدة التي خطبها في عكاظ وهو على راحلته كما مر آنفا فقال ايها الناس اجتمعوا فاسمعوا وعوا من عاش مات ومن مات فات وكل ماهو آت آت . وقال في هذه آيات محكمات مطر ونبات وآباء وامهات وذاهب وآت ونجوم تموز وبحور لاتغور وسقف مرفوع ومهاد موضوع وليل داج وسماء ذات ابراج مالي ارى الناس يموتون ولا يرجعون أرضوا فاقاموا ام حبسوا فناموا . وقال يا معشر اياد أين ثمود وعاد وأين الآباء والاجداد وأين المعروف الذي لم يشكر والظلم الذي لم ينكر اقسم قس قسما بالله ان لله دينا هو ارضى له من دينكم هذا وانشأ يقول

في الذاهبين الاولين ... من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا ... للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها ... تمضي الاكابر والاصاغر
لا يرجع الماضي ولا ... يبقى من الباقين غابر
ايقنت اني لا محالة ... حيث صار القوم صائر

هكذا ذكر الجاحظ هذه الخطبة وقد ذكرها ابن العربي في المسامرات اطول وفيها زيادة على ماذكره الجاحظ .

ومن خطب الموسم خطبة لابن عباس اجاب بها عمرو بن العاص

وذلك ان عمرو بن العاص قام بالموسم فاطرى معاوية وبنى امية وتناول بنى هاشم ثم ذكر مشاهده بصفين فقام ابن عباس فقال يا عمرو انك بعت دينك من معاوية فاعطيته ما فى يدك ومناك مافى يد غيره فكان الذى اخذ منك فوق الذى اعطاك وكان الذى اخذت منه دون مااعطيته وكل راض بما اخذ واعطى فلما صارت مصر فى يدك تبعك فيها بالعزل والتنقص حتى لو ان نفسك فيها القيتها اليه . وذكرت مشاهدك بصفين فما ثقلت علينا يومئذ وطأتك ولا نكتنا فيها حربك وإن كنت فيها لطويل اللسان قصير السنان آخر الحرب اذا اقبلت واولها اذا ادبرت . لك يدان يد لا تبسطها الى خير ويد لا تقبضها عن شر ووجهان وجه مؤنس ووجه موحش ولعمرى ان من باع دينه بدنيا غيره لحرى ان يطول حزنه على ماباع واشترى . لك بيان وفيك خطل ولك رأى وفيك نكد ولك قدر وفيك حسد فاصغر عيب فيك اعظم عيب فى غيرك . فقال عمرو اما والله مافى قريش احد اثقل وطأة على منك ولا لاحد من قريش قدر عندى مثل قدرك .

(خطبة النكاح)

ومن الخطب خطبة النكاح فقد كانوا اذا خطبوا امرأة واجتمعوا عند وليها لاجل الاملاك يخطب احدهم فيتكلم بما يرغب ولى المرأة فى الخاطب من مدحه والثناء عليه فيجيبه الولى بالقبول وبذلك يتم الاملاك والسنة عندهم فى خطبة النكاح ان يطيل الخاطب ويقصر المجيب . ومن عادتهم فى خطبهم كلها انهم يخطبون وهم قيام الا فى خطبة النكاح فان الخطيب يخطب وهو قاعد وقد روى ابو مخنف عن الحارث الاعور قال والله لقد رأيت عليا وانه ليخطب قاعدا كقائم ومحاربا كمسالم . يريد بقوله قاعدا خطبة النكاح وقال الهيثم بن عدى لم تكن الخطباء تخطب

قعودا الا فى خطبةالنكاح . وكانت خطبةالنكاح اشق عليهم من غيرها من الخطب ومقام الخطيب فيها احرج فلايقدم عليها الا من كان فى بيانه ابرع وعلى القول فى المقام الضنك اجرأ ولذلك قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه مايتصعدنى كلام كما تصعدنى خطبةالنكاح . ومما يذكر فى هذا الباب ماانشد ابن الاعرابى لابى مسمار العكلى من قوله

لله در عامر اذا نطق   فى حفل املاك وفى تلك الحلق
ليس كقوم يعرفون بالشدق   من خطب الناس ومما فى الورق
يلفقون القول تلفيق الخلق   من كل نضاح الذفارى بالعرق
اذا رمته الخطباء بالحدق

والذفارى جمع الذفرى والذفريان للبعير وهما اللحمتان فى قفاه وقد عنى الشاعر بالذفارى هنا بدن الخطيب لان عرق الخطيب فى اثناء الخطبة معيب عندهم كما قد ذكرناه فى معايب الخطيب وانما خص الشاعر خطب الاملاك بالذكر لانهم يذكرون انه يعرض للخطيب فيها من الحصر اكثر مما يعرض لصاحب المنبر ولذلك قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه مايتصعدنى كلام كما تصعدنى خطبةالنكاح .

وقد سئل ابن المقفع عن قول عمر هذا فقال مااعرفه الا ان يكون اراد قرب الوجوه من الوجوه ونظر الحداق من قرب فى اجواف الحداق ولانه اذا كان جالسا معهم كانوا كأنهم نظراء واكفاء واذا علا المنبر صاروا سوقة ورعية قال الجاحظ وقد ذهب ذاهبون الى ان تأويل قول عمر يرجع الى ان الخطيب لايجد بدا من تزكية الخاطب فلعله كره ان يمدحه بما ليس فيه فيكون قد قال زورا وغرّ القوم من صاحبه قال ولعمرى ان هذا التأويل ليجوز اذا كان الخطيب موقوفا على الخطابة فاما عمر بن الخطاب رضى الله عنه واشباهه من الائمة الراشدين رضوان الله عليهم اجمعين فلم يكونوا ليتكلفوا ذلك الا فيمن يستحق المدح . قلت اما

كون الأئمة الراشدين لم يتكلفوا ذلك الافيمن يستحق المدح فغير مسلم لان الخلفاء الراشدين لم ترفعهم الخلافة عن مخالطة العامة فلو دعاهم فى العامة رجل من عرض النـاس الى الخطبة لما ترفعوا عن اجابته كما هو معلوم من سيرتهم الراشدة

وها نحن نأتيك بنتف من خطب النكاح مما عثرنا عليه فى تضاعيف كلام الجاحظ فى كتاب البيان لتعلم بذلك ولو مجملا كيف كانوا يخطبون فى النكاح . فمن ذلك ماروى عن الحسن البصرى انه كان يقول فى خطبة النكاح بحمدالله والثناء عليه اما بعد فان الله جمع بهذا النكاح الارحام المنقطعة والانساب المتفرقة وجعل ذلك فى سنة من دينه ومنهاج واضح من امره وقد خطب اليكم فلان وعليه من الله نعمة .

ولما اراد النبى صلى الله عليه وسلم ان يتزوج خديجة رضى الله عنها وذهب صلى الله عليه وسلم هو وعمه ابو طالب وزمرة من رجال قريش وبنى هاشم يخطبونها من عمرو بن خويلد عمها خطب ابو طالب خطبة النكاح فقال :

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسماعيل وضئضئ معد وعنصر مضر وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه وجعل لنا بيتا محجوجا وحرما آمنا وجعلنا الحكام على النـاس ثم ان ابن اخى هذا محمد بن عبـدالله لايوزن به رجل الا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا . فان كان فى المال قل فان المال ظل زائل وامر حائل وعارية مسترجعة . وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل جسيم . ومحمد من قد عرفتم قرابته وقد خطب اليكم راغبا فى كريمتكم خديجة بنت خويلد وبذل لها من الصداق ماعاجله وآجله اثنتا عشرة اوقية ونش . والنش نصف الاوقية وكذا نصف كل شئ يقال نش الدرهم ونش الرغيف اى نصفه وكانت الاوقية عندالعرب اربعين درهما .

ولما سكت ابو طالب اجابه ورقة بن نوفل وهو ابن عم خديجة فقال : الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت وفضلنا على من عددت فنحن سادة العرب وقادتها وانتم اهل ذلك كله لاينكر العرب فضلكم ولا يرد احد من الناس فخركم وشرفكم وقد رغبنا فى الاتصال بحبلكم فاشهدوا على معاشر قريش انى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد ابن عبدالله على ماذكر من المهر . ثم سكت فقال له ابوطالب انى احببت ان يشركك عمها . يعنى عمرو بن خويلد فقال عمرو اشهدوا على يا معشر قريش انى قد انكحت محمد بن عبدالله خديجة بنت خويلد ثم قال هو الفحل لايقرع انفه . وهو مثل تضربه العرب للشريف الذى اذا خطب كريمة قوم لايردونه .

وخطب محمد بن الوليد بن عتبة الى عمر بن عبدالعزيز اخته فقال عمر الحمد لله رب العزة والكبرياء وصلى الله على محمد خاتم الانبياء : امابعد فقد احسن بك ظنا من اودعك حرمته واختارك ولم يختر عليك وقد زوجناك على مافى كتاب الله من امساك بمعروف اوتسريح باحسان .

وكان لخالد بن صفوان مولى فقال له يوما زوجنى امتك فلانةفقال قد زوجتكها قال أفادخل الحى حتى يحضروا الخطبة فقال ادخلهم فلما دخلوا ابتدأ خالد فقال : اما بعد فان الله اعز واجل من ان يذكر فى نكاح هذين الكلبين وقد زوجنا هذه الفاعلة من هذا ابن الفاعلة.

وقال ابوالحسن خطب مصعب بن حيان اخو مقاتل بن حيان خطبة نكاح فحصر فقال لقنوا موتاكم قول لااله الا الله فقالت ام الجارية عجل الله موتك ألهذا دعوناك . وكانت قريش فى الجاهلية تخطب خطبة النكاح هكذا باسمك اللهم ذكرت فلانة وفلان بها مشغوف باسمك اللهم لك ماسألت ولنا مااعطيت .

والغالب ان يكون الخطيب فى خطبة النكاح غير الخاطب لان الخاطب

اذا كان هو الخطيب لنفسه اضطر الى تزكية نفسه ومدحها وذلك مما لا يستحسن وربما كان الخاطب هو الخطيب كما وقع ذلك للفضل الرقاشى فانه خطب الى قوم من بنى تميم فخطب هو خطبة النكاح فلما فرغ قام اعرابى منهم فاجابه قائلا توسلت بحرمة وواليت بحق واستندت الى خير ودعوت الى سنة ففرضك مقبول وماسألت مبذول وحاجتك مقضية ان شاء الله تعالى . قال الفضل لوكان الاعرابى حمدالله فى اول كلامه وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم لفضحنى يومئذ. اى ان هذا الاعرابى الذى اجاب الفضل قد ترك الحمد فى اول كلامه فجاءت خطبته بتراء وترك الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فجاءت خطبته شوهاء ولولا ذلك لكان فى خطبته هذه اخطب من الفضل لان ترك الحمد والصلاة فى اول الخطبة معيب عندهم كما سنذكره فى المبحث الآتى

المبحث الثامن

فيما يلحق الخطب من البتر والشوه عندهم

كان خطباء العرب اذا خطبوا يستفتحون الكلام بتحميدالله تعالى وتمجيده ويتبعون ذلك بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم كما انهم كانوا يستحسنون ان يكون فى الخطب يوم الحفل وفى الكلام يوم الجمع آى من القرآن فان ذلك عندهم مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة وحسن الموقع . قال الهيثم قال عمران بن حطان اول خطبة خطبتها عند زياد فاعجب بها زياد وشهدها عمى وابى وقد ظننت انى لم اقصر فى تلك الخطبة عن غاية ولم ادع لطاعن من علة ثم انى مررت ببعض المجالس فسمعت رجلا يقول لبعضهم هذا الفتى اخطب العرب لوكان فى خطبته شئ من القرآن .

اما الخطبة التى لم يستفتح صاحبها كلامه فيها بالحمد فقد كانوا يصفونها بالبتر فيقولون خطبة بتراء ومنه « خطب زياد خطبته البتراء » وسنذكر

هذه الخطبة كما انهم كانوا يصفون بالشوه الخطبة التى لم يزينها صاحبها بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ولم يوشحها بآى من القرآن فيقولون خطبة شوهاء. قال الجاحظ فى كتاب البيان ومازالوا يسمون الخطبة التى لم يبتدأ صاحبها بالتحميد ويستفتح كلامه بالتمجيد البتراء ويسمون التى لم توشح بالقرآن وتزين بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم الشوهاء قال وخطب اعرابى فلما اعجله بعض الامر عن التصدير بالتحميد والاستفتاح بالتمجيد قال : اما بعد بغير ملال لذكر الله ولا ايثار غيره عليه فانا نقول كذا ونسأل كذا. فرارا من ان تكون خطبته بتراء. وكذلك فعل شبيب بن شبة فى احدى خطبه حيث قال : الحمد لله وصلى الله على رسوله اما بعد فانا نسأل كذا ونبذل كذا. فاختصر الحمد والصلاة فى اول كلامه فرارا من ان تكون خطبته بتراء وشوهاء. وخطب زياد بالبصرة خطبة لم يبتدأ فيها بحمد الله فاشتهرت بالبتراء وهى من غرر الخطب المشهورة. قال ابو الحسن المدائنى راويا عن مسلمة بن محارب وعن ابى بكر الهذلى قالا قدم زياد البصرة واليا لمعاوية بن ابى سفيان وقد ضم اليه خراسان وسجستان والفسق بالبصرة يومئذ كثير فاش قالا فخطب خطبة بتراء لم يحمد الله فيها وقال غيرهما بل قال الحمد لله على افضاله واحسانه ونسأله المزيد من نعمه واكرامه اللهم كما زدتنا نعما فالهمنا شكرا : امابعد فان الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والغىّ الموفى باهله على النار مافيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الامور العظام ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير كأنكم لم تقرؤا كتاب الله ولم تسمعوا ما اعدالله من الثواب الكريم لاهل طاعته والعذاب الاليم لاهل معصيته فى الزمن السرمدى الذى لا يزول أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية ولا تذكرون انكم احدثتم فى الاسلام الحدث الذى لم تسبقوا اليه من

تركتكم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله . هذه المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر والعدد غير قليل ألم تكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار قربتم القرابة وباعدتم الدين تعتذرون بغير العذر وتغضون على المختلس . كل امرئ منكم يذب عن سفيهه صنيع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معادا ما انتم بالحلماء ولقد اتبعتم السفهاء فلم يزل بكم ماترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الاسلام ثم اطرقوا وراءكم كنوسا فى مكانس الريب . حرام على الطعام والشراب حتى اسويها بالارض هدما واحراقا . انى رأيت آخر هذا الامر لا يصلح الا بما صلح به اوله لين فى غير ضعف وشدة فى غير عنف وانى اقسم بالله لآخذن الولى بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصى والصحيح منكم فى نفسه بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم اخاه فيقول انج سعد فقد هلك سعيد اوتستقيم قناتكم . ان كذبة المنبر بلقاء مشهورة فاذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتى فاذا سمعتموها منى فاغتمزوها فى [*] واعلموا ان عندى امثالها . من نقب منكم عليه فانا ضامن لما يذهب منه فاياى ودلج الليل فانى لا اوتى بمدلج الا سفكت دمه وقد اجلتكم فى ذلك بمقدار ماياتى الخبر الكوفة ويرجع اليكم . واياى ودعوى الجاهلية فانى لا اجد احدا دعابها الا قطعت لسانه . قد احدثتم احداثا لم تكن وقد احدثنا لكل ذنب عقوبة فمن غرق قوما غرقناه ومن احرق قوما احرقناه ومن نقب بيتا نقبناه عن قلبه ومن نبش قبرا دفناه حيا فيه فكفوا عنى ايديكم وألسنتكم اكفف عنكم يدى ولسانى ولا تظهر من احد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتهم الا ضربت عنقه . وقد كانت بينى وبين اقوام احن فجعلت ذلك دبر اذنى وتحت قدمى فمن كان منكم محسنا فليزدد احسانا ومن كان منكم مسيئا فلينزع

[*] قوله فاغتمزوها اى فاطعنوا على بها يقال فعلت شيأ فاغتمزه فلان اى طعن على فيه .

من اساءته . انى لوعلمت ان احدكم قد قتله السل من بغضى لم اكشف له قناعا ولم اهتك له سترا حتى يبدى لى صفحته فاذا فعل ذلك لم اناظره فاستأنفوا اموركم واعينوا على انفسكم فرب مبتئس بقدومنا سيسر ومسرور بقدومنا سيبتئس . ايها الناس انا اصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة نسوسكم بسلطان الله الذى اعطانا ونذود عنكم بفئ الله الذى خولنا فلنا عليكم السمع والطاعة فيما احببنا ولكم علينا العدل فيما ولينا فاستوجبوا عدلنا وفيأنا بمناصحتكم لنا واعلموا انى مهما قصرت عنه فلن اقصر عن ثلاث لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولواتانى طارقا بليل ولا حابسا عطاء ولارزقا عن ابانه ولا مجمرا [١] لكم بعثا فادعوا الله بالصلاح لائمتكم فانهم ساستكم المؤدبون لكم وكهفكم الذى اليه تأوون ومتى يصلحوا تصلحوا ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم ولاتدركوا له حاجتكم مع انه لواستجيب لكم فيهم لكان شرا لكم اسأل الله ان يعين كلا على كل واذا رأيتمونى انفذ فيكم الامر فانفذوه على اذلاله وايم الله ان لى فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل امرئ منكم ان يكون من صرعاى . قال فقام اليه عبدالله بن الاهتم فقال اشهد ايها الامير لقد اوتيت الحكمة وفصل الخطاب فقال له كذبت ذاك نبى الله داود صلوات الله عليه قال فقام الاحنف بن قيس فقال انما الثناء بعد البلاء والحمد بعد العطاء وانا لن نثنى حتى نبتلى فقال له زياد صدقت فقام ابو بلال مرداس بن امية وهو يهمس ويقول انبأنا الله بغير ماقلت قال الله وابراهيم الذى وفى ألاتزر وازرة وزر اخرى وان ليس للانسان الا ماسعى وانت تزعم انك تأخذ البرئ بالسقيم والمطيع بالعاصى والمقبل بالمدبر . فسمعها زياد فقال له انا لانبلغ ماتريد فيك وفى اصحابك حتى نخوض اليكم الباطل خوضا .

---

[١] قوله ولا مجمرا لكم بعثا اى ولا حابسا لكم جيشا فى ارض العدو يقال جمر الجيش اى حبسهم فى ارض العدو ولم يقفلهم من الثغر وفى الحديث لاتجمروا الجيش فتفتنوهم .

وزياد هذا كان من مشاهير خطباء العرب وكان كلما اطال الكلام زاد اجادة فيه . فقد روى عن خلاد بن يزيد الارقط انه قال سمعت من يخبر انالشعبي قال ماسمعت متكلما على منبر قط تكلم فاحسن الا احببت ان يسكت خوفا من ان يسيء الا زيادا فانه كان كلما اكثر كان اجود كلاما . وقال ابوالحسن المدائني قالالحسن اوعد عمر فعفا واوعد زياد فابتلى قال وقالالحسن ايضا تشبه زياد بعمر فافرط وتشبه الحجاج بزياد فاهلكالناس .

المبحث التاسع

في

تمثل الخطباء بالشعر

ان جميع خطبالعرب من اهل المدر والوبر على ضربين ومنها الطول ومنهاالقصار والخطب الطوال اكثر مئنة للتمثل بالشعر فيها لان الطول داع الى ذلك غير ان الجاحظ قد صرح فيكتاب البيان بان اكثر الخطباء لايتمثلون فيخطبهم الطوال بشيء منالشعر وانهم لايكرهونه فى الرسائل الا انتكون الى الخلفاء . قال وسمعت مؤمل بن خاقانيخطب وذكر فى خطبته تميم بن مر فقال ان تميما له الشرف القديم والسؤدد والعز الاقعس والعدد الهيضل وهى فىالجاهلية القدام والازوة والسنام وقد قال الشاعر .

فقلت له وانكر بعض شاني ألم تعرف رقاب بني تميم

قالوكان صالحالمري القاص العابد البليغ كثيرا ما ينشد فيقصصه وفى مواعظه هذا البيت .

فبات يروّي اصول الفسيل فعاش الفسيل ومات الرجل

وانشد الحسن فى مجلسه وفى قصصه وفى مواعظه

ليس من مات فاستراح بميت ... انما الميت ميت الاحياء

قال وانشد عبدالصمد بن الفضل بن عيسى بن ابان الرقاشى الخطيب القاص الشجاع اما فى قصصه واما فى خطبة من خطبه

ارض تخيرها لطيب مقيلها ... كعب بن مامة وابن ام دؤاد
جرت الرياح على محل ديارهم ... فكأنهم كانوا على ميعاد
فارى النعيم وكل مايلهى به ... يوما يصير الى بلى ونفاد

وقال ابو الحسن خطب عبدالله بن الحسن على منبر البصرة فى العيد فانشد فى خطبته

اين الملوك التى عن حظها غفلت ... حتى سقاها بكأس الموت ساقيها
تلك المدائن بالآفاق خالية ... امست خلاء وذاق الموت بانيها

ومن الخطب التى انشد فيها صاحبها خطبة عبدالله بن همام السلولى التى هنأ بها يزيد بن معاوية بالخلافة وعزاه عن ابيه قال :

يا اميرالمؤمنين آجرك الله على الرزية وبارك لك فى العطية واعانك على الرعية فلقد رزئت عظيما واعطيت جسيما فاشكر الله على ما اعطيت واصبر على مارزيت فقد فقدت الخليفة واعطيت الخلافة ففارقت جليلا ووهبت جزيلا قضى معاوية نحبه فغفر الله ذنبه ووليت الرياسة فاعطيت السياسة فاوردك الله موارد السرور ووفقك لصالح الامور وانشأ يقول

اصبر يزيد فقد فارقت ذا كرم ... واشكر حباء الذى بالملك اصفاك
لارزء اصبح فى الاقوام قد علموا ... كما رزئت ولا عقبى كعقباك
اصبحت راعى اهل الدين كلهم ... فانت ترعاهم والله يرعاك
وفى معاوية الباقى لنا خلف ... اذا نعيت ولا نسمع بمنعاك

ومن الخطب التى انشد فيها صاحبها متمثلا خطبة الحجاج التى خطبها

لما قدم الكوفة واليا . قال الجاحظ حدثني محمد بن يحيى بن على عن عبدالحميد عن عبدالله بن ابى عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال خرج الحجاج يريد العراق واليا عليها فى اثنى عشر راكبا على النجائب حتى دخل الكوفة فجأة حين انتشر النهار وقد كان بشر بن مروان بعث المهلب الى الحرورية فبدأ الحجاج بالمسجد فدخله ثم صعد المنبر وهو متلثم بعمامة خز حمراء فقال : علىّ بالناس فحسبوه واصحابه خوارج فهموا به حتى اذا اجتمع الناس فى المسجد قام فكشف عن وجهه ثم قال

انا ابن جلا وطلاع الثنايا　　　متى اضع العمامة تعرفونى

اما والله انى لاحتمل الشر بحلمه واحذوه بنعله واجزيه بمثله وانى لارى رؤسا قد اينعت وحان قطافها وانى لصاحبها وانى لانظر الى الدماء ترقرق بين العمائم واللحا « قد شمرت عن ساقها فشمر » ثم قال

هذا اوان الشد فاشتدى زيم　　　قد لفها الليل بسواق حطم
ليس براعى ابل ولا غنم　　　ولا بجزار على ظهر وضم

قال ايضا

قد لفها الليل بعصلبىّ　　　اروع خراج من الدوىّ
مهاجر ليس باعرابى

انى والله يا اهل العراق والشقاق والنفاق ومساوى الاخلاق ما اغمز تغماز التين ولا يقعقع لى بالشنان ولقد فررت عن ذكاء وفتشت عن تجربة وجريت من الغاية ان امير المؤمنين كب كنانته ثم عجم عيد انها فوجدنى امرها عودا واصلبها عمودا فوجهنى اليكم فانكم طالما اوضعتم فى الفتن واضطجعتم فى مراقد الضلال وسننتم سنن الغى اما والله لالحونكم لحو العصا ولاعصبنكم عصب السلمة ولاضربنكم ضرب غرائب الابل فانكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل

مكان فكفرت بانعم الله فاذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. انى والله لا اعد الا وفيت ولا اهم الا امضيت ولا اخلق الا فريت فاياى وهذه الجماعات وقالا وقيلا وماتقول وفيم انتم وذاك. اما والله لتستقيمن على طريق الحق اولادعن لكل رجل منكم شغلا فى جسده. من وجدت بعد ثلاثة من بعث المهلب سفكت دمه وانهبت ماله ثم دخل منزله.

وللحجاج خطبة اخرى انشد فيها ايضا قال الهيثم بن عدى قال انبأنى ابن عياش عن ابيه قال خرج الحجاج يوما من القصر بالكوفة فسمع تكبيرا فى السوق فراعه ذلك فصعد المنبر فحمد الله واثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال يا اهل العراق يا اهل الشقاق والنفاق ومساوى الاخلاق وبنى اللكيعة وعبيد العصا واولاد الاماء والفقع بالقرقر انى سمعت تكبيرا لا يراد به الله وانما يراد به الشيطان وانما مثلى ومثلكم ماقال عمرو بن براق الهمدانى.

وكنت اذا قوم غزونى غزوتهم ... فهل انا فى ذا يال همدان ظالم
متى تجمع القلب الذكى وصارما ... وانفا حميا تجتنبك المظالم

اما والله لا تقرع عصا عصا الا جعلتها كامس الدابر.

المبحث العاشر

فى

منزلة الخطيب والشاعر عند العرب

لا نريد هنا ان نحكم حكما باتا فيما بين منزلتى الخطيب والشاعر من التفاضل حتى يتعين بذلك أيهما اعلى منزلة من الآخر لان ذلك ليس من غرضنا هيهنا ولانه داع الى التطويل الذى ليس لنا من الوقت مايسعه. سوى ان الحكم العام فى هذه المسألة هو ان المجتمع الانسانى محتاج الى كليهما ولكن هذا الاحتياج قد يتفاوت فى الدرجات بسبب مايعرض له

من الزيادة والنقصان فربما يطرأ من الاحوال ويحدث من الامور ماتكون الحاجة فيه الى الشاعر اشد فيعلو على الخطيب منزلة وبالعكس . وايضا قد يطرأ على اهل الشعر اواهل الخطابة من الاحوال مايستوجب علو منزلة احد الفريقين على الآخر .

اما العرب فقد كانوا اشد الامم اهتماما بشعرائهم وخطبائهم حتى لقد كان لكل قبيلة شاعر وخطيب وكانت القبيلة اذا نبغ فيها شاعر اتتها القبائل تهنئها به . وقد كان الشعراء عندهم اعلى منزلة من الخطباء ولكنهم لما تبذلوا فى الشعر انحطت منزلتهم وصارت منزلة الخطباء اعلى من منزلتهم . قال الجاحظ قال ابو عمرو بن العلاء كان الشاعر فى الجاهلية يقدم على الخطيب بفرط حاجتهم الى الشعر الذى يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم ويهول على عدوهم ومن غزاهم ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا الى السوقة وتسرعوا الى اعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر ولذلك قال الاول « الشعر ادنى مروءة السرى واسرى مروءة الدنى » قال ولقد وضع قول الشعر من قدر النابغة الذبيانى ولوكان فى الدهر الاول مازاده الا رفعة اه وقد زعم جرجى زيدان فى كتابه «تاريخ آداب اللغة العربية» ان مجيء الاسلام هو السبب فى تقديم الخطيب على الشاعر . وهذا خطأ فاحش منه والصواب ماقاله ابو عمرو بن العلاء الذى هو اعلم الاولين والآخرين باخبار العرب واحوالهم وناهيك برجل فيه يقول الفرزدق الذى هو كما قال يونس لولا شعر الفرزدق لذهب نصف اخبار الناس

مازلت افتح ابوابا واغلقها حتى اتيت ابا عمرو بن عمار

وفى ابى عمرو هذا يقول مكى بن سوادة

الجامع العلم ننساه ويحفظه والصادق القول ان انداده كذبوا

المبحث الحادى عشر

فى

ان الخطيب قد يكون شاعرا ايضا

ليس هناك فرق كبير بين صناعة الخطيب وصناعة الشاعر اذ كلتا الصناعتين شعرية ادبية فكلا الرجلين من خطيب وشاعر يقولان الشعر غاية ماهنالك ان شعر احدهما موزون وشعر الآخر غير موزون . ومع ذلك فان مواقعهما مختلفة فللشاعر مواقف لا يقفها الخطيب وللخطيب مواقف لا يقفها الشاعر ومن اجل ذلك اختلف منزلتاهما فى المجتمع الانسانى وجاز ان يقع التفاضل بين منزلتيهما .

وربما اجتمعت الصناعتان فى شخص واحد فكان خطيبا وشاعرا قال الجاحظ وفى الخطباء من يكون شاعرا ويكون اذا تحدث او وصف او احتج بليغا مفوها بيّنا وربما كان خطيبا فقط وشاعرا فقط وبيّن اللسان فقط اه والذى يفهم من كلام الجاحظ هذا ان هناك رجلا ثالثا غير الخطيب والشاعر وهو البليغ المفوه البين اللسان . وعليه فقد يكون الانسان ذا بلاغة وبيان ولا يكون خطيبا ومعنى ذلك انه اذا تكلم تكلم ببلاغة وحسن بيان ولكن لا يستطيع ان يقف موقف الخطيب وكذلك كان ثابت بن عبدالله بن الزبير قال الجاحظ كان ثابت بن عبدالله بن الزبير من ابين الناس ولم يكن خطيبا .

قال والخطباء كثير والشعراء اكثر منهم ومن يجمع الخطابة والشعر قليل فمن جمعوا الخطابة والشعر عمرو بن الاهتم المنقرى التيمى وكان يدعى المكحل لجماله وهو الذى قيل فيه انما شعره حلل منشرة بين ايدى الملوك تأخذ منه ماشاءت ولم يكن فى بادية العرب فى زمانه اخطب منه . وعمرو بن الاهتم هذا هو الذى قال له النبى صلى الله عليه وسلم لما رأى

حسن بيانه وبراعة منطقه (ان من البيان لسحرا) وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم سأل عمرو بن الاهتم عن الزبرقان بن بدر والزبرقان حاضر فقال انه مانع لحوزته مطاع فى اذينه فقال الزبرقان اما انه قد علم اكثر مما قال لكنه حسدنى شرفى فقال عمرو اما لئن قال ماقال فوالله ماعلمته الاضيق الصدر زمر المروءة لئيم الخال حديث الغنى . فلمارأى انه خالف قوله الآخر قوله الاول ورأى الانكار فى عين رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يارسول الله رضيت فقلت احسن ماعلمت وغضبت فقلت اقبح ماعلمت وما كذبت فى الاولى ولقد صدقت فى الآخرة فقال النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك (ان من البيان لسحرا).

وممن جمعوا الخطابة والشعر قس بن ساعدة الايادى وهو الذى روى رسول الله صلى الله عليه وسلم كلامه وذكر موقفه على جمله بعكاظ وموعظته وعجب من حسنه واظهر من تصويبه قال الجاحظ وهذا اسناد تعجز عنه الامانى وتنقطع دونه الآمال وانما وفق الله ذلك لقس ابن ساعدة لاحتجاجه للتوحيد ولاظهاره معنى الاخلاص وايمانه بالبعث ولذلك كان خطيب العرب قاطبة .

وممن جمعوا الخطابة والشعر من خطباء اياد زيد بن جندب الايادى خطيب الازارقة وقد ذكره الشاعر فى مرثيته لابى داود بن جرير الايادى ضاربا المثل به وبغيره من خطباء اياد حيث قال

نعى ابن جرير جاهل بمصابه ... فعم نزارا بالبكا والتحوب
نعاه لنا كالليث يحمى عرينه ... وكالبدر يغشى ضوءه كل كوكب
واصبر من عود واهدى اذا سرى ... من النجم فى داج من الليل غيهب
واضرب من حد السنان لسانه ... وامضى من السيف الحسام المشطب
زعيم نزار كلها وخطيبها ... اذا قال طاطا رأسه كل مشغب
سليل قروم سادة ثم قالة ... يبزون يوم الجمع اهل المحصب

كقس اياد اولقيط بن معبد وعذرة والمنطيق زيدبن جندب

وزيد بن جندب هذا هوالذى يقول فى الاختلاف الذى وقع بين الازارقة .

قل للمحلين قد قرت عيونكم بفرقة القوم والبغضاء والهرب
كنا اناسا على دين ففرقنا فرع الكلام وخلط الجد باللعب
ماكان اغنى رجالا ضل سعيهم عن الجدال واغناهم عن الخطب
انى لاهونكم فى الارض مضطربا مالى سوى فرسى والرمح من نشب

ومن الخطباء الشعراء البعيث المجاشعى واسمه خداش بن بشر بن لبيد وانما قيل له البعيث لقوله

تبعثت منى ماتبعثت بعدما امرت حبالى كل مرتها شزرا

وقال عبدالله بن رؤبة سأل رجل رؤبة عن اخطب بنى تميم فقال خداش بن لبيد يعنى البعيث الشاعر وقال ابو اليقظان كانوا يقولون اخطب بنى تميم البعيث اذا اخذ القناة فهزها ثم اعتمد بها على الارض ثم رفعها ولم يكن البعيث فى الشعر مبرزا كالخطابة ولذلك قال يونس لعمرى لئن كان مغلبا فى الشعر لقدكان غلب فى الخطب . واذا قالوا غلب فهو الغالب واذا قالوا مغلب فهوالمغلوب كما قال امرؤ القيس

وانك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلّب

وليس البعيث وحده ترك اسمه واشتهر باسم آخر مشتق من شعره بل امثاله فى ذلك كثير فمنهم عوف بن حصين بن حذيفة بن بدر غلب عليه عويف القوافى لقوله .

ساكذب من قدكان يزعم اننى اذا قلت شعرا لااجيد القوافيا

فسمى عويف القوافى . ومنهم يزيد بن ضرار التغلبى غلب عليه المزرد لقوله

فقلت تزردهـا عبيد فانى لدرد الموالى فى السنين مزرد

فسمى المزرد وقوله تزردها اى ابتلعها . والدرد جمع ادرد وهو من ذهبت اسنانه كلها . ومنهم عمرو بن سعيد بن ملك غلب عليه المرقش لقوله

الدار قفر والرسوم كما رقش فى ظهر الاديم قلم

فسمى مرقشا . ومنهم سالم بن نهار العبدى غلب عليه الممزق لقوله

فان كنت مأكولا فكن خير آكل والا فادركنى ولما امزق

فسمى الممزق . ومنهم جرير بن عبدالمسيح الضبعى غلب عليه المتلمس وذلك لقوله

فهذا اوان العرض طن ذبابه زنابيره والازرق المتلمس

فسمى المتلمس . ومنهم عمرو بن رباح بن عمرو السلمى ابو خنساء بنت عمرو غلب عليه الشريد لقوله

تولى اخوتى وبقيت فردا وحيدا فى ديارهم شريدا

فسمى الشريد . ومنهم من المولدين مسلم بن الوليد غلب عليه صريع الغوانى وذلك لقوله

وما العيش الا ان اروح مع الصبا واغدو صريع الراح والاعين النجل

فسمى صريع الغوانى . ومنهم ابو الطيب احمد بن الحسين غلب عليه المتنبى لقوله

انا فى امة تداركها الله غريب كصالح فى ثمود

فسمى المتنبى وقيل سمى بذلك لانه ادعى النبوة وهو قول ضعيف ومن الخطباء والشعراء الكميت بن زيد الاسدى وكنيته ابو المستهل وهو من شعراء مضر وألسنتها وكان مشهورا بالتشيع لبنى هاشم وله قصائد فيهم تسمى الهاشميات وهو القائل من قصيدة له فى هذا الباب .

بنى هاشم رهط النبي فانني   بهم ولهم ارضى مرارا واغضب

ومن الخطباء الشعراء الطرماح بن حكيم الطائى وكنيته ابو نفر وهو من فحول الشعراء الاسلاميين وفصحائهم نشأ فى الشام وانتقل الى الكوفة مع من وردها من جيوش اهل الشام واعتقد مذهب الشراة والازارقة يدل على ذلك قوله .

لقد شقيت شقاء لا انقطاع له   ان لم افز فوزة تنجى من النار
والنار لم ينج من روعاتها احد   الا المنيب بقلب المخلص الشارى
او الذى سبقت من قبل مولده   له السعادة من خلاقها البارى

وكان معاصرا للكميت بن زيد الاسدى المتقدم ذكره وكانا صديقين قال الجاحظ ولم ير الناس اعجب حالا من الكميت والطرماح كان الكميت عدنانيا عصبيا وكان الطرماح قحطانيا عصبيا وكان الكميت شيعيا من الغالية وكان الطرماح خارجيا من الصفرية وكان الكميت يتعصب لاهل الكوفة وكان الطرماح لاهل الشام وبينهما مع ذلك من الخاصة والمخالطة ما لم يكن بين نفسين قط ثم لم يجر بينهما صرم ولا جفوة ولا اعراض ولا شىء مما تدعو هذه الخصال اليه . قال القاسم بن معن قال محمد بن سهل راوية الكميت انشدت الكميت قول الطرماح .

اذا قبضت نفس الطرماح اخلقت   عرى المجد واسترخى عنان القصائد

فقال الكميت اى والله وعنان الخطابة والرواية . وكان الاصمعى يستجيد قول الطرماح فى صفة الثور

يبدو وتضمره البلاد كأنه   سيف يسل على البلاد ويغمد

وللطرماح قصائد كثيرة فى هجو بنى تميم وهو القائل فيهم

تميم بطرق اللؤم اهدى من القطا   ولو سلكت سبل المكارم ضلت

ومن الخطباء الشعراء عمران بن حطان وكنيته ابو شهاب احد بنى

عمرو بن شيبان اخوة سدوس وكان من خطباء الشراة ودعاتهم المقدمين في مذاهبهم فهو رئيس القعدة وصاحب فتياهم ومفزعهم عند اختلافهم وكان الحجاج يلج في طلب عمران بن حطان وبلغه ان غزالة الحرورية دخلت على الحجاج فتحصن منها واغلق عليه قصره فكتب اليه عمران

اسد علي وفي الحروب نعامة ربداء تجفل من صفير الصافر
هلا برزت الى غزالة في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر
صدعت غزالة قلبه بفوارس تركت مدابره كامس الدابر

ومن الخطباء الشعراء نصر بن سيار احد بني ليث بن بكر صاحب خراسان وهو يعد في اصحاب الولايات وفي الحروب وفي التدبير والعقل وشدة الرأي . ومنهم دغفل بن حنظلة النسابة الخطيب العلامة . ومنهم القعقاع بن شور ومنهم عجلان بن سحبان الباهلي وسحبان هذا هو سحبان وائل وهو خطيب العرب .

ومن الخطباء الشعراء العلماء وممن قد تنافر اليه الاشراف اعشى همدان وهو عبدالرحمن بن عبدالله بينه وبين همدان ثلاثة عشر ابا وكان الاعشى شاعرا فصيحا وهو زوج اخت الشعبي الفقيه والشعبي زوج اخته وكان ممن خرج على الحجاج وحاربه مرات فظفر به واتي به اليه اسيرا فقال له الحجاج الحمد لله الذي امكنني منك ألست القائل كذا ألست القائل كذا وذكر له ابياتا كان قد قالها في هجو الحجاج وتحريض الناس على قتاله ثم قال له ألست القائل

واصابني قوم وكنت اصبتهم فاليوم اصبر للزمان واعرف
واذا تصبك من الحوادث نكبة فاصبر فكل غيابة تتكشف

اما والله لتكونن نكبة لاتنكشف غيابتها عنك ابدا ياحرسيّ اضربا عنقه فضربت عنقه . وكان قد اسر مرة في بلاد الديلم ثم ان بنتا للعلج الذي اسره احبته وصارت اليه ليلا ومكنته من نفسها فاصبح وقد واقعها

ثمان مرات فقالت له انتم معشر المسلمين هكذا تعملون بنسائكم فقال نعم فقالت بهذا العمل نصرتم ثم قالت أفرأيت ان خاصتك تصطفيني لنفسك فقال نعم وعاهدها فلما كان الليل حلت قيوده واخذت به طريقا تعرفها وهربت معه فقال فى ذلك شاعر من اسراء المسلمين .

فمن كان يفديه من الاسر ماله　　فهمدان تفديها الغداة ايورها

ومن الشعراء الخطباء عمران بن عصام العنزى وهو الذى اشار على عبدالملك بخلع اخيه عبدالعزيز والبيعة للوليد بن عبدالملك فى خطبته المشهورة وقصيدته المذكورة وهو الذى لما بلغ عبدالملك بن مروان قتل الحجاج له قال ويله لم قتله هلا رعى له قوله فيه

وبعثت من ولد الاغر معتب　　صقرا يلوذ حمامه بالعرفج
فاذا طبخت بناره انضجتها　　واذا طبخت بغيرها لم تنضج
وهو الهزبر اذا اراد فريسة　　لم يحها منه صياح الهجهج

ومن خطباء الامصار وشعرائهم والمولدين منهم بشار الاعمى وهو بشار بن برد وكنيته ابو معاذ كان من احد موالى بنى عقيل فان كان مولى ام ظباء على مايقول بنو سدوس وماذكره حماد عجرد فهو من موالى بنى سدوس ويقال انه من اهل خراسان نازلا فى بنى عقيل وله مديح كثير فى فرسان اهل خراسان ورجالاتهم وهو الذى يقول

انا من خراسان وبيتى فى الذرا　　ومن ولد المسعاة فرعى قد سبق
وانى لمن قوم خراسان دارهم　　كرام وفرعى فيهم ناضر بسق

وكان شاعرا راجزا خطيبا صاحب منثور ومزدوج وله رسائل معروفة . وانشد عقبة بن رؤبة عقبة بن سلم رجزا يمتدحه فيه وبشار حاضر فاظهر بشار استحسان الارجوزة فقال عقبة بن رؤبة هذا طراز ياابا معاذ لاتحسنه فقال بشار ألمثلى يقال هذا الكلام انا والله

ارجز منك ومن ابيك وجدك ثم غدا على عقبة بن سلم بارجوزته التى اولها

ياطلل الحى بذات الصمد بالله خبر كيف كنت بعدى

وهى التى فيها يقول :

اسلم وحييت اباالملد لله ايامك فى معد

وفيها يقول

الحر يلحى والعصا للعبد وليس للملحف مثل الرد

وكان بشار يصوّب رأى ابليس فى تقديم النار على الطين وفى ذلك قد قال :

الارض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

ولصفوان الانصارى قصيدة طويلة يفنّد فيها رأى بشار ويرد عليه مذهبه فى تقديم النار على الطين قداوردها الجاحظ فى « البيان والتبيين » وقد ذكر الشاعر اخوى بشار لامه فقال :

لقد ولدت ام الاكيمة اعرجا وآخر مقطوع القفا ناقص القصد

وكانوا ثلاثة اخوة مختلفى الآباء والام واحدة وقال صفوان الانصارى فى بشار واخويه ايضا يخاطب امهم

ولدت خلدا وذيخا فى تشتمه وبعده خزز يشتد فى العضد

ثلاثة من ثلاث فرقوا فرقا فاعرف بذلك عرق الخال من ولد

والخلد ضرب من الجرذان يولد اعمى والذيخ ذكر الضباع وهو اعرج والخزز ذكر الارانب وهو قصير اليدين لايلحقه الكلب فى الصيد . وقال بعد ذلك سليمان الاعمى اخو مسلم بن الوليد الانصارى الشاعر فى اعتذار بشار لابليس وهو يخبر عن كرم خصال الارض :

لابد للارض ان طابت وان خبثت   من ان تحيل اليها كل مغروس
وتربة الارض ان جيدت وان قحطت   فحملها ابدا فى اثر منفوس
وبطنها بفلز الارض ذو خبر   بكل جوهرة فى الارض مرموس
وكل آنية عمت مرافقها   وكل منتقد فيها وملبوس
وكل ماعونها كالملح مرفقة   وكلها مضحك من قول ابليس

قوله بفلز الارض الفلز جوهر الارض من الذهب والفضة والنحاس والآنك وغير ذلك . قال الجاحظ والمطبوعون على الشعر من المولدين بشار العقيلى والسيد الحميرى وابو العتاهية وابن ابى عيينة قال وقد ذكر الناس فى هذا الباب يحيى بن نوفل وسلما الخاسر وخلف بن خليفة وابان بن عبد الحميد اللاحقى اولى بالطبع من هؤلاء وبشار اطبعهم كلهم .

وقد ذكروا فى نسب بشار انه بشار بن برد بن يرجوخ بن ازدكرد ابن شروستان بن بهمن بن دارا بن فيروز بن كرديه بن ماهفيدان بن دادان بن بهمن بن ازدكرد بن حسيس بن مهران بن خسروان بن اخشين ابن شهرداد بن نبوذ بن ماخرشيدا اتاذ بن شهرياد بن بندار سيحان ابن مكرد بن ادريس بن يستاسب . وبشار هذا يعد من مخضرمى شعراء الدولتين الاموية والعباسية وهو بصرى المولد والمنشأ والوفاة ومات بضرب المهدى له سياطا اتت على تلفه لانكاره عليه اشياء بلغته عنه وذلك سنة ثمان وستين ومائة وقد بلغ من العمر نيفا وسبعين سنة .

وممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن كلثوم بن عمرو العتابى وكنيته ابو عمرو . وعلى الفاظه وحذوه ومثاله فى البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين كنحو منصور النمرى ومسلم بن الوليد الانصارى واشباههما وكان العتابى يحتذى حذو بشار فى البديع ولم يكن فى المولدين اصوب بديعا من بشار وابن هرمة . والعتابى من ولد عمرو بن كلثوم ولذلك قال :

انى امرؤ هدم الاقتار مأثرتى ... واجتاح مابنت الايام من خطرى
ايام عمرو بن كلثوم يسوّده ... حيّا ربيعة والافناء من مضر
ارومة عطلتنى من مكارمها ... كالقوس عطلها الرامى من الوتر
نهى ظراف الغوانى عن مواصلتى ... ما يفجأ العين من شيبى ومن قصرى

وهذا البيت الاخير يدل على انه كان قصيرا .

ومن الخطباء الشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار المجلدة والسير الحسان المولدة والاخبار المدونة سهل بن هارون بن راهبيونى الكاتب صاحب كتاب ثعلة وعفرة فى معارضة كتاب كليلة ودمنة وكتاب الاخوان وكتاب المسائل وكتاب المخزومى والهذلية وغير ذلك من الكتب .

ومن الخطباء الشعراء خالد بن يزيد بن معاوية كان خطيبا شاعرا وفصيحا جامعا وجيد الرأى كثير الادب وكان اول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء .

ومن الخطباء الشعراء عون بن عبدالله بن عتبة بن مسعود فقد كان مع كونه خطيبا راوية ناسبا شاعرا ولما رجع عن قول المرجئة الى قول الشيعة قال :

واول ما نفارق غير شك ... نفارق مايقول المرجئونا
وقالوا مؤمن من آل جور ... وليس المؤمنون بجائرينا
وقالوا مؤمن دمه حلال ... وقد حرمت دماء المؤمنينا

وكان حين هرب الى محمد بن مروان فى فلّ ابن الاشعث الزمه ابنه يؤدّبه ويقوّمه فقال له يوما كيف ترى ابن اخيك قال الزمتنى رجلا ان غبت عنه عتب وان اتيته حجب وان عاتبته غضب . ثم لزم عمر بن عبدالعزيز وكان ذا منزلة منه قالوا وله يقول جرير لما غبر على باب عمر بن عبدالعزيز ولم يصل اليه

يا ايهـا الرجل المرخى عمامته هذا زمانك انى قد مضى زمنى
ابلغ خليفتنـا ان كنت لاقيه انى لدى الباب كالمشدود فى قرن
وقد رآك وفود الخافقين معـا ومذ وليت امور الناس لم ترنى

وممن جمعوا الخطـابة والشعر ابراهيم بن السندى قال الجـاحظ واما ابراهيم فانه كان رجلا لانظير له وكان خطيبا وكان ناسبا وكان فقيهاوكان نحويا عروضيا وحافظا للحديث راوية للشعر شاعرا وكان فخم الالفاظ شريف المعانى وكان كاتب القلم كاتب العمل وكان يتكلم بكلام رؤبة ويعمل فى الخراج بعمل زاذان فروح الاعور وكان منجمـا طبيبا وكان من رؤساء المتكلمين وعالما بالدولة وبرجال الدعوة وكان احفظ الناس لماسمع واقلهم نوما واصبرهم على السهر .

ومن الخطباء الشعراء عبدالله بن شبرمة بن طفيل بن هبيرة بن المنذر وكان فقيها عالما قاضيا وكان راويه شاعرا وكان خطيبا ناسبا وكان حاضر الجواب مفوها وكان لاجتماع هذه الخصال فيه يتشبه بعامر الشعبى وكان يكنى اباشبرمة وفيه قال يحيى بن نوفل :

لماسـألت الناس اين المكرمة والعز والجرثومة المقدمة
واين فاروق الامور المحكمة تتابع الناس على ابن شبرمة

وابن شبرمة هوالذى يقول فى ابى ليلى

وكيف ترجّى لفصل القضاء ولم تصب الحكم فى نفسكا
فتزعم انك لابن الجلاح وهيهات دعواك من اصلكا

ومن الخطباء الشـعراء ابوالاسـود الدئلى واسمه ظالم بن عمرو بن جندل ابن سـفيان كان خطيبا عالما وهو معدود فى التابعين والفقهاء والشعراء والمحدثين والاشراف والفرسان والامراء والدهاة والنحويين وهو واضع علم النحو وكان من اكثر النـاس تعلقا بعلى كرم الله وجهه وعنه اخذ علم النحو كما هو مشهور اما من حيث الشعر فقدكان من نصراء الشيعة

لكنه لم يكن يجسر على هجو معاوية كما فعل اكثر امثاله وكان معاوية لايتعمد اذاه ولكنه كان يضايقه فلم يرو له طعن فى بنى امية واكثر شعره فى الحكم والادب وله من قصيدة

حسدوا الفتى اذلم ينالوا سعيه   فالقوم اعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها   حسدا وبغضا انه لدميم

ولاريب ان الذين جمعوا الخطابة والشعر اكثر ممن ذكرنا وليس من غرضنا استقصاؤهم وانما ذكرنا من ذكرنا منهم على سبيل المثال وحسبنا هذا المقدار .

المبحث الثانى عشر

فيما يعرض للخطيب من الرتج والحصر

قد تعرض للخطيب اثناء الخطبة حالة يستعصى معها عليه الكلام فيقف ساكتا لايدرى ماذا يقول ويسمى ذلك بالحصر وبالرتج يقال حصر الخطيب فى خطبته حصرا اذا عيى ولم يقدر على النطق ويقال رتج رتجا اذا استغلق عليه الكلام ويقال ايضا ارتج عليه وارتتج واسترتج بصيغة المجهول اى استغلق عليه الكلام كأنه اطبق عليه . واكثر مايكون ذلك فى اول الخطبة وهو دليل على ان مركب الخطابة صعب لايذل الا لمن اوتى مع ذلاقة اللسان جراءة الجنان . غير ان عروض مثل ذلك للخطيب لايزرى به ولا يحط من قدره وقد عرض الحصر لكثير من الخطباء المصاقع ولم يتعيبهم احد به لانه عرض زائل والمعيب انما هو العى والحصر الدائم .

فمن اصابه الحصر فى الخطابة عثمان رضى الله عنه وذلك انه صعد المنبر فارتج عليه فقال ان ابابكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا وانتم الى

امام عادل احوج منكم الى امام خطيب وستأتيكم الخطب على وجهها وتعلمون ان شاء الله تعالى . ونحو هذا الكلام اعتذر ايضا ثابت بن قطنة الشاعر المشهور . وذلك ان يزيد بن المهلب ولاه عملا فى خراسان فلما صعد المنبر رام الكلام فتعذر عليه وحصر فقال سيجعل الله بعد عسر يسرا او بعد عى بيانا وانتم الى امير فعال احوج منكم الى امير قوال

وان لم اكن فيكم خطيبا فاننى بسيفى اذا جد الوغى لخطيب

وممن خطب فارتج عليه فى اثناء الخطبة عبدالله بن الحسن وذلك ان يوسف بن عمر لما بعث برأس زيد بن على بن الحسين مع شبة بن عقال وكلف آل ابى طالب ان يبرؤا من زيد ويقوم الخطباء بذلك قام عبدالله ابن الحسن فاوجز فى كلامه ثم جلس فقام بعده عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر فاطنب فى كلامه وكان شاعرا بينا وخطيبا لسنا فانصرف الناس وهم يقولون ابن الطيار اخطب الناس فقيل لعبدالله بن الحسن فى ذلك فقال لو شئت ان اقول لقلت ولكن لم يكن مقام سرور فاعجب الناس ذلك منه

وقال ابو الحسن صعد عدى بن ارطاة المنبر فلما رأى جماعة الناس حصر فقال الحمد لله الذى يطعم هؤلاء ويسقيهم . وصعد روح بن حاتم المنبر فلما رأى الناس قد شنفوا ابصارهم وفتحوا اسماعهم نحوه قال نكسوا رؤسكم وغضوا ابصاركم فان المنبر مركب صعب واذا يسر الله فتح قفل تيسر . وقال ابو الحسن ايضا خطب مصعب بن حيان اخو مقاتل ابن حيان خطبة نكاح فحصر فقال لقنوا موتاكم قول لا اله الا الله فقالت ام الجارية عجل الله موتك ألهذا دعوناك . وخطب عبدالله بن عامر على منبر البصرة فحصر وشق ذلك عليه فقال له زياد يسليه ايها الامير انك ان اقمت عامة من ترى اصابه اكثر مما اصابك . وقيل لرجل من الوجوه قم فاصعد المنبر وتكلم فلما صعد حصر وقال الحمد لله الذى ق

هؤلاء وبقى ساكتا فانزلوه وصعد آخر فلما استوى قائما وقابل بوجهه وجوه الناس وقعت عينه على صلعة رجل فقال اللهم العن هذه الصلعة وقيل لوازع اليشكرى قم فاصعد المنبر وتكلم فلما صعد ورأى جمع الناس حصر فقال لولا ان امرأتى لعنها الله حملتنى على اتيان الجمعة اليوم ماجمّعت وانا اشهدكم انها منى طالق ثلاثا . وفى ذلك قال الشاعر

وماضرنى ان لا اقوم بخطبة　　وما رغبتى فى ذا الذى قال وازع

قلنا ان ما يعرض للخطيب من الرتج والحصر غير معيب لانه عارض يزول وربما اصيب به الخطيب المصقع ولانه غير ناشئ عن عجز عن الكلام ولا عن ضعف فى القدرة على البيان وانما المعيب هو العى والخطل بان يخطئ نهج الصواب فى كلامه ولا يكشف القناع عن وجه مرامه ويأتى بالكلام التافه والعبارة الزائدة من غير فائدة قال الهيثم خطب قبيصة وهو خليفة ابيه على خراسان وقد اتاه كتابه فقال هذا كتاب الامير وهو والله اهل لان اطيعه وهوابى واكبر منى . فاذا نظرت الى هذا الكلام ومافيه من الرقاعة هانت عندك مصيبة الخطيب بما يعرض له من الحصر فى خطبته فالحصر غير معيب وانما المعيب ان يتكلم كلاما يكون السكوت اعلى قدرا منه ككلام قبيصة هذا . ومن هذا القبيل ماذكروه عن عتاب بن ورقاء قالوا انه خطب يوما فقال فى خطبته هذا كما قال الله تبارك وتعالى انما يتفاضل الناس باعمالهم وكل ماهو آت قريب فقالوا له ان هذا ليس من كتاب الله قال ماظننت الا انه من كتاب الله .

وخطب عدى بن زياد الايادى فقال اقول كما قال العبد الصالح ما اريكم الا ما ارى ومااهديكم الا سبيل الرشاد فقالوا له ليس هذا من قول العبد الصالح انما هو قول فرعون قال من قاله فقد احسن . وخطب والى اليمامة فقال ان الله لا يقار عباده على المعاصى وقد اهلك الله امة عظيمة فى ناقة ماكانت تساوى مائتى درهم . فسمى مقوّم ناقة الله .

وخطب وكيع بن ابى سود بخراسان فقال ان الله خلق السموات والارض فى ستة اشهر فقيل له انها ستة ايام قال وابيك لقد قلتها وانى لاستقلها . وصعد المنبر يوما فقال ان ربيعة لم تزل غضابا على الله منذ بعث نبيه من مضر الاوان ربيعة قوم كشف [*] فاذا رأيتموهم فاطعنوا الخيل فى مناخرها فان فرسا لم يطعن فى منخره الا كان اشد على فارسه من عدوه . فالحصر خير من هذا ومااشبهه .

المبحث الثالث عشر

فى

اللحن ومن وقع لهم اللحن من البلغاء الابيناء

اللحن هو الخطأ فى الاعراب والبناء كرفع المنصوب ونصب المرفوع وفتح المكسور وكسر المفتوح . وقد يطلق اللحن ويراد به مخالفة نهج الصواب فى الكلام بوجه من الوجوه . كتقصير ماحقه المد ومد ماحقه التقصير ولاسيما فى القرآن وقد قال الميسانى فى هجاء اهل المدينة

ولحنكم بتقصير ومد والام من يدب على العفار

قال الجاحظ وقال يوسف بن خالد التيمى لعمرو بن عبيد ماتقول فى دجاجة ذبحت من قفائها فقال له عمرو احسن فقال من قفاؤها قال احسن قال من قفاءها قال له من عناك هذا قل من قفاها واسترح . قال وسمعت من يوسف بن خالد يقول لا حتى يشجه بكسر الشين يريد حتى يشجه بضم الشين . وكان يوسف يقول هذا احمر من هذا يريد هذا اشد حمرة من هذا . قال وكان هشيم يقول حدثنا يونس عن الحسن

[*] قوله قوم كشف بضمتين الذين لايصدقون القتال ولا يعرف له واحد .

يقولها (اى كلة يونس) بفتح الياء وكسر النون . وكان عبد الاعلى الساقى يقول فاخذه فصرعه فذبحه فاكله بكسر هذا الجمع .

فهذا كله يعد لحنا وان لم يكن من الخطأ فى الاعراب . واللحن بكلا المعنيين معيب فى الخطابة ومخل بآدابها وكذلك قال عبدالملك بن مروان اللحن هجنة على الشريف والعجب آفة الرأى . وكان يقال اللحن فى المنطق اقبح من آثار الجدرى فى الوجه وقال ابو الطيب اللغوى ان اول ما اختل من كلام العرب واحوج الى التعلم الاعراب لان اللحن ظهر فى كلام الموالى والمتعربين من عهد النبى صلى الله عليه وسلم قال فقد روينا ان رجلا لحن بحضرته فقال ارشدوا اخاكم فقد ضل . وقال ابو بكر الصديق رضى الله عنه لان اقرأ فاسقط احب الى من ان اقرأ فالحن . وقد كان اللحن معروفا بل قد روينا من لفظ النبى صلى الله عليه وسلم انه قال انا من قريش ونشئت فى بنى سعد فانى لى اللحن . وكتب كاتب لابى موسى الاشعرى الى عمر فلحن فكتب اليه عمر ان اضرب كاتبك سوطا واحدا اهـ . وقد علمت ان الاعراب حلية الخطابة وزينتها كما جاء فى قول ابن جرير الذى ذكرناه لك سابقا فى مبحث (قوام الخطابة وآدابها) فاذا وقع اللحن فيها سقطت حليتها وذهبت زينتها بل قد يكون الكلام اذا وقع فيه اللحن ناقصا غير مفهوم المعنى كما ذكروا ان اعرابيا سمع رجلا يقول اشهد ان محمدا رسول الله فقال يفعل ماذا . وذلك انه لما جاء بخبر ان منصوبا فهم الاعرابى ان رسول الله صفة اوبدل فبقيت ان بلا خبر وبقى الكلام ناقصا فقال (يفعل ماذا) يسأله عن الخبر . وقد قلنا فيما سبق ايضا ان مصيبة الخطيب الراذل اى الذى يأتى بالفاظه مرذولة غير متخيرة اعظم من مصيبة الخطيب اللاحن لان اللحن مهما كان معيبا فهو مغتفر وقد وقع لكثير من الخطباء والعلماء الاجلاء قال الجاحظ ومن اللحانين البلغاء خالد بن عبدالله القسرى وخالد بن صفوان الاهتمى وعيسى بن المدور . وفى خالد بن عبدالله هذا يقول يحيى بن نوفل

وألحن النـــاس كل الناس قاطبة   وكان يولع بالتشديق فى الخطب

وزعم المدائنى ان خالد بن عبدالله قال ان كنتم رجبيون فانا رمضانيون قال الجاحظ ولولا ان تلك العجائب قد صحت على الوليد ماجوّزت هذا على خالد . والوليد هذا هو الوليد بن عبدالملك وكان لحانا قال بكر ابن عبدالعزيز الدمشقى سمعت الوليد بن عبدالملك على المنبر حين ولى الخلافة وهو يقول اذا حدثتكم فكذبتكم فلاطـاعة لى عليكم واذا وعدتكم فاخلفتكم فلا طاعة لى عليكم واذا اغربتكم فجمّرتكم فلا طاعة لى عليكم . قال فيقول مثل هذا الكلام ثم يقول لابيه ياامير المؤمنين اقتل ابى فديك وقال مرة اخرى ياغلام ردالفرسان الصادان عن الميدان . قال وقال عبدالملك اضر بالوليد حبنا له فلم نوجهه الى البادية . قال ولحن الوليد على المنبر فقال الكروس لاوالله ان رأيته على هذه الاعواد قط فامكننى ان املأ عينى منه من كثرته فى عينى وجلالته فاذا لحن هذا اللحن الفاحش صار عندى كبعض اعوانه .

ومن اللحانين البلغاء ابو معمر قال الجاحظ حدثنا عثام ابو يحيى عن الاعمش عن عمارة بن عمير قال كان ابو معمر يحدثنا فيلحن . ومنهم عبيدالله بن زياد قال ابو الحسن اوفد زياد ابنه عبيدالله الى معاوية فكتب اليه معاوية ان ابنك كما وصفت ولكن قوّم من لسانه وكانت فى عبيدالله لكنة لانه كان نشأ بالاســاورة مع امه مرجانة وكان زياد تزوجها من شيرويه الاسوارى وقال عبيدالله مرة افتحوا سيوفكم يريد سلوا سيوفكم فقال يزيد بن مفرغ .

ويوم فتحت سيفك من بعيد   اضعت وكل امرك للضياع

ولما كلم سويد بن منجوف فى الهثهـات بن ثور قال له يا ابن البظراء فقال له سويد كذبت على نساء بنى سدوس قال اجلس على است الارض قال سويد ما كنت احسب ان للارض اسـتا . فقول عبيدالله افتحوا

سيوفكم واجلس على است الارض لحن لكن لا من جهة الاعراب بل من جهة كونه مخالفا انهج الصواب فى الكلام . وممن وقع لهم اللحن بشر بن مروان حيث قال مرة وعنده عمر بن عبد العزيز لغلام له ادع لى صالحا فقال الغلام ياصالحا فقال له بشر ألق منها الف قال له عمر وانت فزد فى الفك الفا . وقيل لابى حنيفة ماتقول فى رجل اخذ صخرة فضرب بها رأس رجل فقتله أتقيده به قال لا ولو ضرب رأسه باباقبيس . وروى ابو الحسن ان الحجاج كان يقرأ انا من المجرمين المنتقمون وقد زعم رؤبة ابن العجاج وابو عمرو بن العلاء انهما لم يريا قرويين افصح من الحسن والحجاج وغلط الحسن فى حرفين من القرآن مثل قوله ص والقرآن والحرف الآخر وما تنزلت به الشياطون وقال ابو الحسن كان سابق الاعمى يقول الخالق البارئ المصور فكان ابن جابان اذا لقيه قال يا سابق ما فعل الحرف الذى تشرك بالله فيه . قالوا واول لحن سمع بالبادية هذه عصاتى واول لحن سمع بالعراق حى على الفلاح . ودخل ابو الفضل بن عياش على كافور الاخشيدى وعنده البحترى الشاعر المشهور فقال له ادام الله ايام سيدنا (بالخفض) ولحن فقال البحترى مرتجلا .

لاغرو ان لحن الداعى لسيدنا وغص من هيبة بالريق والبهر
فمثل سيدنا حالت مهابته بين البليغ وبين القول بالحصر
فان يكن خفض الايام من دهش من شدة الخوف لامن قلة البصر
فقد تفاءلت فى هذا لسيدنا والفال مأثرة عن سيد البشر
بان ايامه خفض بلا نصب وان دولته صفو بلا كدر

ورب قائل يقول ليس من الحق ان يكون اللحن معيبا على الخطيب لان مدار الامر على الافهام فهو الغاية المقصودة من الكلام فالخطيب اذا افهم السامعين حاجته ولو بالكلام الملحون فاجدر به ان يعد فى عداد مصاقع الخطباء ولاضير عليه من اللحن وأى ضرر فى مخالفة الاعراب

او نهج الصواب بعد ان يكون الافهام حاصلا وقد قال العتابى حين سئل عن البلاغة كل من افهمك حاجته فهو بليغ .

والجواب ان مدار الامر ليس على الافهام مطلقا بل على الافهام على مجرى كلام الفصحاء ولو كان مدار الامر على الافهام وحده لاتصف بالبلاغة كل احد حتى العجماوات فانا نفهم بحمحمة الفرس كثيرا من حاجاته كما نفهم من هؤلاء الخرس الذين يكلموننا بالاشارة كل ما ارادوا من المعانى وليس هم من البلاغة فى شئ واليك ما قاله الجاحظ فى دحض هذه الحجة وتفنيد هذا الرأى حيث قال والعتابى حين زعم ان كل من افهمك حاجته فهو بليغ لم يعن ان كل من افهمنا من معاشر المولدين والبلديين قصده ومعناه بالكلام الملحون والمعدول عن جهته والمصروف من حقه انه محكوم له بالبلاغة كيف كان بعد ان نكون قد فهمنا عنه معنى كلام النبطى الذى قيل له لم اشتريت هذه الاتان قال اركبها وتلدلى وقد علمنا ان معناه كان صحيحا وقد فهمنا قول الشيخ الفارسى حين قال لاهل مجلسه ما من شر من دين وانه قال حين قيل له ولم ذاك يا ابا فلان قال من جرى يتعلقون وما نشك انه قد ذهب مذهبا وانه كما قال معنى قول ابى الجهير الخراسانى النخاس حين قال له الحجاج أتبيع الدواب المعيبة من جند السلطان قال شريكاتنا فى هوازها وشريكاتنا فى مداينها وكما تجئ تكون قال الحجاج ما تقول ويلك فقال بعض من قد كان اعتاد سماع الخطأ وكلام العلوج بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك يقول شركاؤنا بالاهواز والمدائن يبعثون الينا بهذه الدواب فنحن نبيعها على وجوهها وقالت الخادم لى فى أى صناعة اسلموا هذا الغلام قال اصحاب سند نعال يريد فى اصحاب النعال السندية . وكذلك قول الكاتب المغلاق للكاتب الذى دونه اكتب لى قل حطنى وزيحنى منه . فمن زعم ان البلاغة ان يكون السامع يفهم معنى القائل جعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب والاغلاق والابانة والملحون والمعرب كله سواء وكله بيانا وكيف يكون

ذلك كله بيانا ولولا طول مخالطة السامع للعجم وسماعه للفاسد من الكلام لما عرفه ونحن لم نفهم عنه الا للنقص الذى فينا واهل هذه اللغة وارباب هذا البيان لا يستدلون على معانى هؤلاء بأكلامهم كالا يعرفون رطانة الروم والصقالب . وان كان هذا الاسم انما يستحقونه بانا نفهم عنهم كثيرا من حوائجهم فنحن قد نفهم . بحمحمة الفرس كثيرا من حاجاته ونفهم بضغاء السنور كثيرا من اراداته وكذلك الكلب والحمار والصبى الرضيع وانما عنى العتابى افهامك العرب حاجتك على مجرى كلام الفصحاء . واصحاب هذه اللغة لا يفقهون قول القائل منا

« مكره اخاك لا بطل » و « اذا عز اخاك فهن »

ومن لم يفهم هـذا لم يفهم قولهم ذهبت الى ابو زيد ورأيت ابى عمرو ومتى وجد النحويون اعرابيا يفهم هذا واشـباهه بهرجوه ولم يسمعوا منه لان ذلك يدل على طول اقامته فى الدار التى تفسـد اللغة وتنقص البيـان لان تلك اللغة انما انقـادات واسـتوت واطردت وتكاملت بالخصال التى اجتمعت لها فى تلك الجزيرة وقد روى اصحابنا ان رجلا من البلديين قال لاعرابى كيف اهلك قالها بكسر اللام فقال صلبا لانه اجابه على فهمه ولم يعلم انه اراد المسألة عن اهله وعياله . وحكى الكسائى انه قال لغلام بالبادية من خلقك وجزم القاف فلم يدر ما قال ولم يجبه فرد عليه السـؤال فقال الغلام لعلك تريد من خلقك . وكان بعض الاعراب اذا سمع رجلا يقول نعم فى الجواب قال نعم وشاء لان لغته نعم وقيل لعمر بن لجاء قل انا من المجرمون متقمين فقال انا من المجرمين متقمون . انتهى

وقال الجاحظ فى موضع آخر من كتـابه ثم اعلم ان اقبح اللحن لحن اصحـاب التقعير والتقعيب والتشديق والتمطيط والجهورة والتفخيم واقبح من ذلك لحن الاعاريب النازلين على طرق السابلة ويقرب مجامع الاسـواق قال واللحن من الجوارى الظراف ومن الكواعب النواهد ومن الشوارب الملاح ومن ذوات الخدور الغرائر ايسر وربما استملح الرجل ذلك منهن مالم تكن الجارية صاحبة تكلف .

المبحث الرابع عشر

في

تخير اللفظ

قال ابو داود بن جرير « رأس الخطابة الطبع وعمودها الدربة وجناحاها رواية الكلام وحليها الاعراب وبهاؤها تخير اللفظ » فيفهم من هذا ان بهاء الخطبة مقرون بتخير الفاظها وانتقاء كلماتها فان الخطيب اذا تخير الالفاظ في خطبته وانتقاها في كلامه جاءت خطبته من البهاء والرواء بما يستفز السامعين ويمتلك اسماعهم ويختلب قلوبهم بخلاف ما اذا رمى الكلام على عواهنه وجاء بالفاظ مرذولة وكلمات مبذولة فان خطبته تكون حينئذ خلوا من البهاء فتستسمجها النفوس ولا تنقاد لها الاسماع وان كانت معانيها شريفة وذلك لان المعنى الشريف اذا اقترن باللفظ السخيف سقط شرفه وعاد مستهجنا فسخافة اللفظ تمحو شرف المعنى ولا عكس اى ان سخافة المعنى لا تمحو شرف اللفظ فان المعنى السخيف اذا اكتسى لفظا شريفا غطى شرف اللفظ على سخافته وشفع له فيها ولذلك قلنا فيما سبق ان مصيبة الخطيب الراذل اعظم من مصيبة الخطيب اللاحن . غير ان مسألة تخير الالفاظ تختلف باختلاف المقامات التي يقوم فيها الخطيب فما عليه اذن الا ان يراعى مقتضى المقام في تخير الفاظه وتنقيح كلامه فينبغي له ان يعرف اقدار المعاني ويوازن بينها وبين اقدار المستمعين وبين اقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما فان كان الخطيب متكلما مثلا تجنب الفاظ المتكلمين في مصطلحاتهم الكلامية كما انه ان عبّر عن شئ من صناعة الكلام واصفا او مجيبا او سائلا كان اولى الالفاظ به الفاظ المتكلمين وان لا يخاطب

الخاصة بالفاظ العامة ولا العامة بالفاظ الخاصة . واليك ماقاله الجاحظ في هذا الباب فتدبره .

قال وكما لا ينبغي ان يكون اللفظ عاميا ساقطا سوقيا فكذلك لا ينبغي ان يكون غريبا وحشيا الا ان يكون المتكلم بدويا اعرابيا فان الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي . قال وكلام الناس في طبقات كما ان الناس انفسهم في طبقات . فمن الكلام الجزل والسخيف والمليح والحسن والقبيح والسميج والخفيف والثقيل وكله عربي وبكل قد تكلموا وبكل قد تمادحوا وتعايبوا فان زعم زاعم انه لم يكن في كلامهم تفاضل ولا بينهم في ذلك تفاوت فلم ذكروا العي والبكي والحصر والمفحم والخطل والمسهب والمتشدق والمتفيهق والمهماز والثرثار والمكثار والهماز ولم ذكروا الهجر والهذر والهذيان والتخليط وقالوا رجل تلقاعة وتلهاعة و فلان يتلهيع في خطبته وقالوا فلان يخطئ في جوابه ويحيل في كلامه ويناقض في خبره ولو ان هذه الامور لم تكن في بعضهم دون بعض لما سمي البعض دون البعض الآخر بهذه الاسماء وانا اقول انه ليس في الارض كلام هو امتع ولا انفع ولا آنق ولا ألذّ في الاسماع ولا اشد اتصالا بالعقول السليمة ولا افتق للسان ولا اجود تقويما للبيان من طول استماع حديث الاعراب الفصحاء العقلاء والعلماء البلغاء وقد اصاب القوم في عامة ماوصفوا الا اني ازعم ان سخيف الالفاظ مشاكل لسخيف المعاني وقد يحتاج الى السخيف في بعض المواضع وربما امتع باكثر من امتاع الجزل الفاخر كما ان النادرة الباردة جدا قد تكون اطيب من النادرة الحارة جدا وانما الكرب الذي يختم على القلوب ويأخذ بالانفاس ، النادرة الفاترة التي لا هي حارة ولا هي باردة وكذلك الشعر الوسط والغناء الوسط وانما الشأن في الحارّ جدا والبارد جدا . وكان محمد بن عباد بن كاسب يقول والله لفلان أثقل من مغنّ وسط وابغض من ظريف وسط ومتى سمعت حفظك الله بنادرة

من كلام الاعراب فاياك وان تحكيها الا مع اعرابها ومخارج الفاظها فانك ان غيرتها بان تلحن فى اعرابها واخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير وكذلك اذا سمعت بنادرة من نوادر العوام وملحة من ملح الحشوة والطغام فاياك وان تستعمل فيها الاعراب اوان تخير لها لفظا حسنا اوتجعل لها من فيك مخرجا سريا فان ذلك يفسد الامتاع بها ويخرجها من صورتها ومن الذى اريدت له ويذهب استطابتهم اياها واستملاحهم لها انتهى ما اردنا نقله من كلام الجاحظ وقد تبين لك منه ان لكل مقام مقالا وانا اذا قلنا بوجوب تخير اللفظ . فلسنا نريد ان الخطيب يجب عليه ان يأتى بالكلام الجزل مطلقا بل يجب عليه ان يراعى المقام فيتخير له من الالفاظ مايلائمه وينطبق عليه ورب مقام يكون فيه السخيف جزلا والجزل سخيفا كما هو ظاهر من كلام الجاحظ اذ لاشك ان الغاية التى يرمى اليها الخطيب انما هى اصابته الهدف وتخلصه الى حبات القلوب والعرب اذا مدحوا خطيبا قالوا اصاب الهدف اى اصاب الحق فى الجملة ويقولون قرطس فلان واصاب القرطاس اذا كان اجود اصابة من الاول فان قالوا رمى فاصاب الغرة واصاب عين القرطاس فهو الذى ليس فوقه احد ومن ذلك قولهم فلان يفل المحز ويطبق المفصل ويضع الهناء مواضع النقب .

المبحث الخامس عشر

فى

صعوبة موقف الخطيب

كل خطيب ذو بيان . وليس كل ذى بيان خطيبا فقد يكون المرء اذا تكلم اعجب الناس بفصاحته وجودة بيانه وبراعة منطقه وهو مع

ذلك لا يستطيع ان يقف موقف الخطيب وكذلك كان ثابت بن عبدالله بن الزبير قال الجاحظ «كان ثابت بن عبدالله بن الزبير من ابين الناس ولم يكن خطيبا» والذين هم مثل ثابت بن عبدالله كثيرون فى كل عصر ومصر وهذا دليل على ان مركب الخطابة صعب لايذلّ الا لمن اوتى مع فصاحة اللسان جراءة الجنان ومع براعة المنطق رباطة الجاش ولهذا السبب كان الخطباء اقل من الشعراء فى كل زمان ومكان مع ان كلتا صناعتيهما تشربان من ماء واحد وليس بينهما فرق كبير وناهيك بما يعرض للخطباء المصاقع احيانا من الوجع والحصر اثناء الخطبة دليلا على صعوبة موقف الخطيب ولعمرى ماأصدق العذرة التى اعتذر بها روح بن حاتم حين صعدالمنبر فلما رأى الناس قد رفعوا رؤسهم وشنفوا اليه حصر فقال نكسوا رؤسكم وغضوا ابصاركم فان المنبر مركب صعب واذايسرالله فتح قفل تيسر. وقد ذكرنا فيما سبق ان من معايب الخطيب ان يعترضه البهر والارتعاش والرعدة والعرق كما قد يقع لبعض الخطباء احيانا وفى ذلك دليل ايضا على صعوبة موقف الخطيب. قال ابوالحسن قال سفيان بن عيينة تكلم صعصعة عند معاوية فعرق قال معاوية بهرك القول فقال صعصعة ان الجياد نضّاحة بالماء. وقال الجاحظ قال الكميت بن زيد وكان خطيبا «ان للخطبة صعداء وهى على ذى اللب ارمى» وقولهم ارمى واربى سواء يقال فلان قد ارمى على المائة واربى.

قال الجاحظ وانما يجترئ على الخطبة الغمرالجاهل الماضى الذى لايثنيه شئ اوالمطبوع الحاذق الواثق بغزارته واقتداره فالثقة تنفى عن قلبه كل خاطر يورث اللجلجة والنحنحة والانقطاع والبهر والعرق. نترى ان الجاحظ فى كلامه هذا تدجعل المجترئ على الخطبة احد اثنين اولهما الغمرالجاهل فهو لجهله بما للخطبة من الصعداء لايثنيه عنها

شئ ولايبالى ان يخرج منها محمودا اومذموما وثانيهما المطبوع الحاذق الواثق باقتداره فهو لثقته باقتداره لايتهيب الوقوف فى موقفها الحرج وعليه فالمقدم على الخطبة لايخلو عن احدى هاتين المرتبتين .

وقال عبدالله بن زياد وكان خطيبا على لكنة كانت فيه نعم الشئ الامارة لولا قعقعة البرد والتشدق للخطب . وقيل لعبد الملك بن مروان عجل عليك الشيب يا اميرالمؤمنين قال وكيف لايعجل علىّ وانا اعرض عقلى على الناس فى كل جمعة مرة او مرتين يعنى خطبة الجمعة وبعض مايعرض من الامور : ولله در من قال

وانا خطبت على الرجال فلاتكن　　خطل الكلام تقوله مختالا
واعلم بان من السكوت ابانة　　ومن التكلم مايكون خبالا

المبحث السادس عشر

فى

ذكر بعض الخطباء

ولنبدأ منهم بذكر الخلفاء الراشدين رضوان الله تعالى عليهم اجمعين فنقول كان الخلفاء الراشدون خطباء قال ابوالحسن كان ابوبكر خطيبا وكان عمر خطيبا وكان عثمان خطيبا وكان على خطيباً .

فاما ابوبكر رضى الله عنه فهو عتيق بن عثمان يكنى اباقحافة بن عامر بن عمرو وهو اول الخلفاء وكان اسمه قبل الاسلام عبد رب الكعبة فسماه النبى صلى الله عليه وسلم عبدالله وقال له صلى الله عليه وسلم انت عتيق من النار فكان يدعى عتيقا وقيل سمى عتيقا لجماله وكان يملك يوم اسلم اربعين الف درهم انفقها كلها فى سبيل الله ولما تولى الخلافة اصبح غاديا الى السوق وعلى رقبته اثواب يتجر بها فلقيه عمر وابوعبيدة فقالا

اين تريد قال السوق قالا ماتصنع وقد وليت امر المسلمين قال فمن اين اطعم عيالى قال ففرضوا له كل يوم شطر شاة وماكساه فى الرأس والبطن وكان ابوبكر يحلب للحى اغنامهم فلما بويع قالت جارية من الحى الآن لايحلب لنا فقال بلى لاحلبنها لكم وارجو ان لايغيرنى مادخلت فيه عن خلق كنت فيه . ولما ولى خطب الناس فحمدالله واثنى عليه ثم قال : امابعد ايهاالناس قدوليت امركم ولست بخير منكم وان اقواكم عندى الضعيف حتى آخذله بحقه وان اضعفكم عندى القوى حتى آخذ منه ايهاالناس انما انا متبع ولست بمبتدع فان احسنت فاعينونى وان زغت فقومونى . وهو الخليفة الذى ولى الخلافة وابوه حى ومات ابوه ابو قحافة بعد موته بسنة وقيل سبعة اشهر . ولما اعتمر ابوبكر الصديق رضى الله عنه فى خلافته فى رجب سنة اثنتى عشر دخل مكة ضحوة فاتى منزله وبوه ابو قحافة جالس على باب داره فقيل له هذا ابنك فنهض قائما وعجل ابوبكر ان ينيخ راحلته فنزل عنها وهى قائمة فجعل ابوبكر يقول ياابت لاتقم ثم التزمه فقبل ابوبكر بين عينى ابيه فاخذ الشيخ يبكى فرحا بقدومه وجاء ممن سمع بقدومه ممن هناك من الصحابة مثل عتاب ابن اسيد وسهيل بن عمرو وعكرمة بن ابى جهل والحارث بن هشام فسلموا عليه سلام عليك ياخليفة رسول الله فجعل ابوبكر عند ماسمع ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكى وابكى القوم وتجدد عليه الحزن لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ابوقحافة ياعتيق هؤلاء الملأ فاحسن صحبتهم فقال ابوبكر ياابت لاحول ولاقوة الابالله العلى العظيم لقد طوقنى الله امرا عظيما لاقوة لى به ولايد الابالله ثم دخل فاغتسل وخرج وتبعه اصحابه فنحاهم ولقيه الناس يعزونه برسول الله وهو يبكى حتى انتهى الى البيت فاضطبع واستلم وطاف سبعا وركع ركعتين ثم رجع الى منزله فلما كانت صلاة الظهر خرج فطاف بالبيت ثم جلس قريبا

من دار الندوة فقال هل من احد يشتكي من ظلامة او يطلب حقا فما اتاه احد واثنى الناس على واليهم خيرا ثم صلى العصر وجلس فردفه الناس ثم خرج راجعا الى المدينة .

وكان ابوبكر خطيبا ونسابة قال ابن العربي في المسامرات وروينا من حديث عمرو بن بحر الجاحظ قال حدثنا سنان بن الحسن التسترى عن اسماعيل بن مهران العسكرى عن ابان بن عثمان عن عكرمة عن ابن عباس عن على بن ابى طالب رضى الله عنه قال لما امر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يعرض نفسه على القبائل خرج وانا معه وابوبكر وكان ابوبكر عالما بانساب العرب فوقفنا على مجلس من مجالس العرب عليهم الوقار والسكينة فتقدم ابوبكر فسلم عليهم فردوا عليه السلام فقال ممن القوم فقالوا من ربيعة قال أمن هاماتها ام من لهازمها قالوا بل من هاماتها العظمى قال واى هاماتها قالوا ذهل قال أذهل الاكبر امذهل الاصغر قالوا بل الاكبر قال أفمنكم عوف الذى كان يقال لاحر بوادى عوف قالوا لا قال أفمنكم بسطام بن قيس صاحب اللواء ومنتهى الاحياء قالوا لا قال أفمنكم جساس بن مرة حامى الذمار ومانع الجار قالوا لا قال أفمنكم المزدلف صاحب العمامة قالوا لا قال فمنكم اخوال الملوك من كندة قالوا لا قال أفانتم اصهار الملوك من لخم قالوا لا قال فلستم من ذهل الاكبر اذ انتم من ذهل الاصغر . فقام اليه اعرابى غلام حين بقل وجهه فاخذ بزمام ناقته ورسول الله صلى الله عليه وسلم واقف على ناقته يسمع مخاطبته فقال لنا على من سألنا ان نسأله والعبء لا تعرفه او تحمله ياهذا انك سألتنا أى مسألة شئت فلم نكتمك فاخبرنا من انت قال ابوبكر من قريش قال بخ بخ اهل الشرف والرياسة فاخبرنى من أى قريش انت قال من تيم بن مرة قال أمنكم قصى بن كلاب الذى جمع القبائل من فهر فكان يقال له مجمعا قال ابوبكر لا قال أفمنكم هاشم الذى يقول فيه الشاعر

عمرو الذى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

قال ابوبكر لا قال أفمنكم شيبة الحمد الذى كان وجهه يضئ فى الليلة الظلماء الداجية مطعم الطير قال لا قال أفمن المفيضين بالبأس انت قال لا قال أفمن اهل الرفادة انت قال لا قال أفمن اهل السقاية انت قال لا قال أفمن اهل الحجابة انت قال لا قال اما والله لوشئت لاخبرتك انك لست من اشراف قريش فاجتذب ابوبكر زمام ناقته منه كهيئة المغضب فقال الاعرابى

صادف درالسيل درا يدفعه يرفعه طورا وطورا يضعه

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال على فقلت يا ابابكر لقد وقعت من هذا الاعرابى على باقعة قال اجل يا اباالحسن مامن طامة الا وفوقها طامة وان البلاء موكل بالمنطق انتهى . قال الجاحظ فى كتاب البيان ومن اصحاب الاخبار والنسب ابوبكر الصديق رضى الله عنه ثم جبير بن مطعم ثم سعيد بن المسيب ثم محمد بن سعيد بن المسيب ثم قتادة وعبدالله بن عبيدالله بن عتبة المسعودى . قال ومر رجل بابى بكر ومعه ثوب فقال أتبيع الثوب فقال لا عافاك الله فقال ابوبكر لقد علمتم لو كنتم تعلمون قل لا وعافاك الله وقال ابراهيم الانصارى (هو ابراهيم ابن محمد المفلوج من ولد ابى زيد القارى) الخلفاء والأئمة وامراء المؤمنين ملوك وليس كل ملك يكون خليفة واماما قال ولذلك فصل بينهم ابوبكر رضى الله عنه فى خطبته فانه لما فرغ من الحمد والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم قال ان اشقى الناس فى الدنيا والآخرة الملوك قال فرفع الناس رؤسهم كالمتعجبين فقال ابوبكر مالكم ايها الناس انكم لطعانون عجلون ان من الملوك من اذا ملك زهده الله فيما عنده ورغبه فيما فى يدى غيره وانتقصه شطر اجله واشرب قلبه الاشفاق فهو يحسد على القليل ويتسخط الكثير ويسأم الرخاء وتنقطع عنه لذة الباه لايستعمل

العبرة ولايسكن الى الثقة فهو كالدرهم القسيّ والسراب الخادع جذل الظاهر حزين الباطن فاذا وجبت نفسه ونصب عمره وضحى ظله حاسبه الله فاشد حسابه واقل عفوه الا ان الفقراء هم المرحومون وخير الملوك من آمن بالله وحكم بكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وانكم اليوم على خلافة النبوة ومفرق المحجة وسترون بعدى ملكا عضوضا وملكا عنودا وامة شعاعا ودما مفاحا فان كانت للباطل نزوة ولاهل الحق جولة يعفو بها الأثر ويموت لها البشر فالزموا المساجد واستشيروا القرآن و الزموا الطاعة ولا تفارقوا الجماعة وليكن الابرام بعد التشاور والصفقة بعد طول التناظر أى بلادكم خرسة ان الله سيفتح عليكم اقصاها كما فتح عليكم ادناها

واما عمر رضي الله عنه فهو عمر بن الخطاب بن نفيل وكنيته ابو حفص واشتهر عمر بالعدل وهو الذى حدّ ابنه عبدالرحمن فى الشراب فمات وكان عمر لا تأخذه فى الحق لومة لائم وكان اذا رأى من انكر منه شيأ عامله بالشدة وربما علاه بالدرة وهى السوط فانه كان لاتفارقه الدرة . وحج مرة فدخل على نافع بن الحارث يعوده فوجده قريب عهد بعرس وفى بيته ستر من ادم مزين بسيور فاخذه عمر فشقه وقال لم لاتسترون بيوتكم بهذه المسوح فهى اوفى وألين واحمل للغبار . ثم مرّ عمر بابى سفيان بن حرب فرأى احجارا قد بناها ابو سفيان كالدكان فى وجه داره يجلس عليها بالغداة فقال عمر لا ارجعن من وجهى هذا حتى تقلعه و ترفعه فلما رجع عمر وجده على حاله فقال ألم اقل لك اقلعه قال انتظرت ان يأتينا بعض اهل مهنتنا فقال عزمت عليك لتقلعه بيدك وتنقله على عاتقك فلم يراجعه وفعل ذلك فقال عمر الحمد لله الذى اعز الاسلام برجل من عدى يأمر اباسفيان سيد بنى عبد مناف بمكة فيطيعه . وكان عمر حريصا على صيانة امور الرعية كثير العاطفة على الفقراء يتفقدهم

ويتعاهدهم ويباشر امورهم بنفسه وروى زيد بن اسلم عن ابيه قال خرجت مع عمر الى السوق فلحقته امرأة شابة فقالت يا امير المؤمنين هلك زوجي وترك صبية صغارا والله ماينضجون كراعا ولا لهم زرع ولاضرع وخشيت عليهم الطمع فانا ابنة خفاف بن ايماء الغفاري وقد شهد ابي الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فوقف معها عمر ولم يمض وقال مرحبا بنسب قريب ثم انصرف الى بعير كان مربوطا الى الدار فحمل عليه غرارتين ملأهما طعاما وجعل بينهما نفقة وثيابا ثم ناولها خطامه وقال اقتاديه فلن يفنى هذا حتى يأتيكم الله بخير . وخرج مرة في سواد الليل فرآه طلحة فذهب عمر فدخل بيتا ثم دخل بيتا آخر فلما اصبح طلحة ذهب الى ذلك البيت فاذا عجوز عمياء مقعدة فقال لها مابال هذا الرجل يأتيك قالت انه يتعاهدني منذ كذا وكذا يأتيني بما يصلحني ويخرج عني الاذى فقال طلحة ثكلتك امك ياطلحة لعثرات عمر تتبع . وذكر الجاحظ عن العتبي انه قال كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه اعلم الناس بالشعر قال ولكنه لما ابتلي بالحكم بين النجاشي والعجلاني وبين الحطيئة والزبرقان كره ان يتعرض للشعراء واستشهد رجالا للفريقين مثل حسان بن ثابت وغيره ممن تهون عليه سبالهم فاذا سمع كلامهم حكم بما يعلم وكان الذي ظهر من حكم ذلك الشاعر مقنعا للفريقين ويكون هو قد تخلص بعرضه سالما فلما رآه من لاعلم له يسأل هذا وهذا ظن ان ذلك لجهله بما يعرف غيره . قال ولقد انشدوه شعرا لزهير وكان عمر لشعره مقدما وقد قال فيه اشعر العرب الذي يقول ومن ومن يعني زهيرا فلما انتهوا من انشادهم الى قوله

وان الحق مقطعه ثلاث   يمين او نفار او جلاء

قال عمر كالمتعجب من علمه بالحقوق وتفصيله بينها واقامته اقسامها

وان الحق مقطعه ثلاث   يمين او نفار او جلاء

يردد البيت من التعجب والاستحسان . وانشدوه قصيدة عبدة بن الطبيب الطويلة التى على اللام فلما بلغ المنشد الى قوله

والمرء ساع لامر ليس يدركه   والعيش شح واشفاق وتأميل

قال عمر متعجبا « والعيش شح واشفاق وتأميل » يعجبهم من حسن ماقسم وفصل . وانشدوه قصيدة ابى قيس بن الاسلت التى على العين وهو ساكت فلما انتهى المنشد الى قوله

الكيس والقوة خير من   الاشفاق والفهة والهاع

اعاد عمر البيت وقال

الكيس والقوة خير من   الاشفاق والفهة والهاع

وجعل عمر يردد البيت استحسانا ويتعجب منه . وقال محمد بن سلام الجمحى عن بعض اشياخه كان عمر بن الخطاب لايكاد يعرض له امر الا انشد فيه بيت شعر . ولما رفع اليه ان الحطيئة آذى الناس بهجائه استحضره وانبه واوهمه انه يقطع لسانه فقال له الحطيئة بالله ياامير المؤمنين الا ما اقلتنى فقد هجوت والله امى وابى وامرأتى ونفسى فقال له عمر ما الذى قلت فى امك قال قلت فيها والجواب للاب

ولقد رأيتك فى النساء فسؤتنى   أبا ابوى فساءنى فى المجلس

وقلت فيها ايضا

تنحى فاجلسى منى بعيدا   اراح الله منك العالمينا
اغربالا اذا استودعت سرا   وكانونا على المتحدثينا

ثم قلت فى امرأتى

اطوف مااطوف ثم آوى   الى بيت قعيدته لكاع

ثم نظرت فى بئر فرأيت وجهى فاستقبحته فقلت

ابت شفتاى اليوم الا تكلما بشر فما ادرى لمن انا قائله
ارى لى وجها قبح الله خلقه فقبح من وجه وقبح حامله

فامر به عمر فسجن فكتب اليه بعد ايام يقول

ماذا تقول لافراخ بذى مرخ حمر الحواصل لا ماء ولا شجر
القيت كاسبهم فى قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمر
انت الامام الذى من بعد صاحبه القت اليك مقاليد النهى البشر
ما آثروك بها اذ قدموك لها لا بل لانفسهم قد كانت الاثر

فامر به فاحضر فاستتوبه وخلى سبيله

ومما هو جدير بان يؤثر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رسالته الى ابى موسى الاشعرى وهى رسالة بديعة فى بابها تتضمن سياسة القضاء وتدبير الحكم قال الجاحظ روى هذه الرسالة ابن عيينة وابوبكر الهذلى ومسلمة ابن محارب رووها عن قتادة ورواها ابو يوسف يعقوب بن ابراهيم عن عبيدالله بن حميد الهذلى عن ابى المليح بن اسامة ان ابن الخطاب رضى الله عنه كتب الى ابى موسى الاشعرى :

بسم الله الرحمن الرحيم : امابعد فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم اذا ادلى اليك فانه لا ينفع تكلم بحق لانفاذله . آس بين الناس فى مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا يخاف ضعيف من جورك والبينة على من ادعى واليمين على من انكر والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا حرم حلالا او احل حراما ولا يمنعك قضاء قضيته بالامس راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك ان ترجع عنه فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل . الفهم الفهم عند مايتلجلج فى صدرك مما لم يبلغك فى كتاب الله ولا سنة النبى صلى الله عليه وسلم اعرف الامثال والاشباه وقس الامور عند ذلك ثم اعمد الى احبها الى الله واشبهها بالحق فيما ترى واجعل للمدعى حقا غائبا اوبينة امدا

ينتهى اليه — قوله حقا . مفعول المدعى . وقوله امدا مفعول اجعل — فان احضر بينته اخذت له بحقه والا وجهت عليه القضاء فان ذلك انفى للشك واجلى للعمى وابلغ فى العذر . المسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلودا فى حد او مجربا عليه شهادة زور او ظنينا فى ولاء او قرابة فان الله قد تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالشبهات . ثم اياك والقلق والضجر والتأذى بالناس والتنكر للخصوم فى مواطن الحق التى يوجب الله بها الاجر ويحسن بها الذخر فانه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه هتك الله ستره وابدى فعله والسلام عليك . وابدع من هذه الرسالة وصيته التى اوصى بها الخليفة من بعده وهى لعمرى مما يجدر ان يكتب بالذهب الابرز وقد اوردها الجاحظ فى « البيان والتبيين » .

واما عثمان رضى الله عنه فهو ابن عفان بن ابى العاص بن امية وكان عنده خاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما سقط منه فى البئر اتخذ خاتما من فضة نقش عليه لتصبرن اولتندمن وكان عثمان كثير التلاوة للقرآن وكان يقول انى لا كره ان ياتى علىّ يوم لا انظر فيه الى عهد الله يعنى المصحف وكان عثمان حافظا وكان حجره لا يكاد يفارق المصحف فقيل له فى ذلك فقال انه مبارك جاء به مبارك وقال يزيد بن عياض لما نقم الناس على عثمان خرج يتوكأ على مروان وهو يقول لكل امة آفة ولكل نعمة عاهة وان آفة هذه الامة عيابون طعانون يظهرون لكم ما تحبون ويسرون ما تكرهون طغام مثل النعام يتبعون اول ناعق لقد نقموا علىّ ما نقموه على عمر ولكن قمعهم ووقمهم والله انى لاقرب ناصرا واعز نفرا فضل فضل من مالى فمالى لا افعل فيه ما اشاء . وقتل عثمان فى فتنة كانت ام الفتن الاسلامية وهو ابن سبع وثمانين سنة ورثاه حسان بن ثابت بقوله

ضحّوا باشمط عنوان السجود به　　يقطع الليل تسبيحا وقرآنا
لتسمعن وشيكا فى ديارهم　　الله اكبر يا ثارات عثمانا

واما على رضى الله عنه فهو ابن ابى طالب بن عبد المطلب وهو اقربهم نسبا برسول الله صلى الله عليه وسلم واكثرهم علما وهو ممن اشتهر فى القضاء كما اشتهر زيد بن ثابت فى الفرائض وابن عباس فى تفسير القرآن فكان كرم الله وجهه اقضى الصحابة رضوان الله تعالى عليهم اجمعين وهو ايضا اخطب الخلفاء الراشدين وخطبه اشهر من ان تذكر وهى مجموعة فى كتاب نهج البلاغة . وقيل لعلى بن ابى طالب رضى الله تعالى عنه كم بين السماء والارض قال دعوة مستجابة فقالوا كم بين المشرق والمغرب قال مسيرة يوم للشمس ومن قال غير هذا فقد كذب . وسئل ابن عباس عن الخلفاء الراشدين فوصفهم وذلك ان عيسى بن طلحة قال قلت لابن عباس اخبرنى عن ابى بكر قال كان خيرا كله على الحدة وشدة الغضب قال قلت اخبرنى عن عمر قال كان كالطائر الحذر قد علم انه قد نصب له فى كل وجه حبالة وكان يعمل لكل يوم بما فيه على عنف السياق قال قلت اخبرنى عن عثمان قال كان والله صواما قواما لم تخدعه نومه عن يقظته قال قلت فصاحبكم — يعنى عليا — قال كان والله مملوأ حلما وعلما غرته سابقته وقرابته وكان يرى انه لايطلب شيأ الا قدر عليه قلت انتم ترونه محدودا قال انتم تقولون ذاك .

ومن الخطباء الذين ذكرهم الجاحظ الفضل بن عيسى الرقاشى قال وكان الفضل من اخطب الناس وكان متكلما وكان قاصا مجيدا وكان يجلس اليه عمرو بن عبيد وهشام بن حسان وابان بن ابى عياش وكثير من الفقهاء وهو رئيس الفضلية واليه ينسبون وخطب اليه ابنته سوادة بنت الفضل سليمان بن طرخان التيمى فولدت له المعتمر بن سليمان وكان سليمان مباينا للفضل فى المقالة فلما ماتت سوادة شهد الجنازة المعتمر وابوه

فقدما الفضل وكان الفضل لا يركب الا الحمير فقال له عيسى بن حاضر انك لتؤثر الحمير على جميع المركوب فلم ذلك قال لما فيها من المرافق و المنافع قال قلت مثل أي شيء قال لا تستبدل بالمكان على قدر اختلاف الزمان ثم هي اقلها داء وايسرها دواء واسلم صريعا واكثر تصريفا واسهل مرتقى واخفض مهوى واقل جماحا واشهر فارها واقل نظيرا يزهى راكبه وقد تواضع بركوبه ويكون مقتصدا وقد اسرف في ثمنه . قال ونظر يوما الى حمار فارة تحت سالم بن قتيبة فقال قعدة نبي وبذلة جبار قال عيسى بن حاضر ذهب الى حمار عزير والى حمار مسيح الدجال والى حمار بلعم . وكان يقول لو اراد ابو سيارة عميلة بن اعزلة ان يدفع بالموسم على فرس عربي اوجمل مهري لفعل ولكنه ركب عيرا اربعين عاما لانه كان يتاله وقد ضرب به المثل فقالوا اصح من عير سيار .

والفضل هذا هو الذي يقول في قصصه سل الارض فقل من شق انهارك وغرس اشجارك وجنى ثمارك فان لم تجبك حوارا اجابتك اعتبارا وكان عبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي خطيبا ايضا غير ان عبد الصمد كان اغزر من ابيه واعجب وابين واخطب. قال وحدثني ابو جعفر الصوفي القاص قال تكلم عبد الصمد في خلق البعوضة وفي جميع شأنها ثلاثة مجالس تامة وكان عبد الصمد يؤثر السجع في كلامه فقيل له لم تؤثر السجع على المنثور وتلزم نفسك القوافي واقامة الوزن قال ان كلامي لو كنت لا آمل فيه الا سماع الشاهد لقل خلافي عليك ولكني اريد الغائب والحاضر والراهن والغابر فالحفظ اليه اسرع والآذان لسماعه انشط وهو احق بالتقييد وبقلة التفلت وما تكلمت به العرب من جيد المنثور اكثر مما تكلمت به من جيد الموزون فلم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره قالوا فقد قيل للذي قال يارسول الله أرأيت من لاشرب ولا اكل ولا صاح فاستهل أليس مثل ذلك بطل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أسجع كسجع الجاهلية فقال عبد الصمد لو ان هذا

المتكلم لم يرد الا الاقامة لهذا الوزن لما كان عليه بأس ولكنه عسى ان يكون اراد ابطالا لحق فتشادق فى كلامه . وكان عم الفضل وهو يزيد ابن ابان الرقاشى خطيبا ايضا وكان يزيد يتكلم فى مجلس الحسن وكان زاهدا عابدا وعالما فاضلا وكان خطيبا وقاصا مجيدا . قال الجاحظ وتمنى قوم عند يزيد بن ابان الرقاشى فقال اتمنى كما تمنيتم قالوا تمنه قال ليتنا لم نخلق وليتنا اذ خلقنا لم نعص وليتنا اذ عصينا لم نمت وليتنا اذ متنا لم نبعث وليتنا اذ بعثنا لم نحاسب وليتنا اذ حوسبنا لم نعذب وليتنا اذ عذبنا لم نخلد . قال الجاحظ وكان ابوهم خطيبا ايضا وكذلك جدهم قال وكانوا خطباء الاكاسرة فلما سبوا وولد لهم الاولاد فى بلاد الاسلام وفى جزيرة العرب نزعهم ذلك العرق فقاموا فى اهل هذه اللغة كمقامهم فى اهل تلك اللغة وفيهم شعر وخطب وما زالوا كذلك حتى اصهر اليهم الغرباء ففسد ذلك العرق ودخله الجور . فالفضل وابنه وعمه وابوه وجده كلهم خطباء .

ومن الخطباء زيد بن على بن الحسين وهو من خطباء بنى هاشم وسأله هشام مرة عما جرى بينه وبين خالد بن عبدالله فقال له زيد احلف لك قال واذا حلفت اصدقك فقال زيد اتق الله قال أو مثلك يازيد يأمر مثلى بتقوى الله فقال زيد لا احد فوق ان يوصى بتقوى الله ولا دون ان يوصى بتقوى الله قال هشام بلغنى انك تريد الخلافة ولا تصلح لها لانك ابن امة قال زيد فقد كان اسماعيل بن ابراهيم صلوات الله عليه ابن امة واسحاق عليه السلام ابن حرة فاخرج الله عز وجل من صلب اسماعيل عليه السلام خير ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم فعندها قال له هشام قم قال اذاً لاترانى الاحيث تكره ولما خرج من الدار قال ما احب احد الحياة قط الا ذل فقال له سالم مولى هشام لايسمعن هذا الكلام منك احد . وقال محمد بن عمير ان زيدا لما رأى الارض قد طبقت جورا ورأى قلة الاعوان ورأى تخاذل الناس كانت الشهادة احب المنيات اليه وكان زيد كثيرا ماينشد

شرّده الخوف وازرى به   كذاك من يكره حر الجلاد
منخرق الخفين يشكو الوجى   تنكبه اطراف مرو حداد
قد كان فى الموت له راحة   والموت حتم فى رقاب العباد

وقد نال ما احب من الشهادة اذ قتله يوسف بن عمر احد عمال هشام وبعث اليه برأسه مع شبة بن عقال . وقال القيطرى قيل لعبدالله ابن الحسن ما تقول فى المراء قال ماعسى ان اقول فى شئ يفسد الصداقة القديمة ويحلل العقدة الوثيقة وان كان لاقل ما فيه ان يكون دربة للمغالبة والمغالبة من امتن اسباب الفتنة . ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اتاه السائب بن صيفى فقال أتعرفنى يا رسول الله قال كيف لا اعرف شريكى الذى كان لا يشارينى ولا يمارينى . قال فتحولت الى زيد بن على فقلت له الصمت خير ام الكلام فقال اخزى الله المساكتة فما افسدها للبيان واجلبها للحصر والله للمماراة اسرع فى هدم العى من النار فى يبس العرفج ومن السيل فى الحدور . قال الجاحظ وقد عرف زيد ان المماراة مذمومة ولكنه قال المماراة على مافيها اقل ضررا من المساكتة التى تورث البلدة وتحل العقدة وتفسد المنة وتورث عللا وتولد ادواء ايسرها العى فالى هذا المعنى ذهب زيد .

ومن الخطباء سعيد بن العاصى بن سعيد بن العاصى بن امية وكان سعيد جوادا ولم ينزع قميصه قط وكان اسود نحيفا وكان يقال له عكة العسل وفيه يقول الحطيئة

سعيد فلا يغررك قلة لحمه   تخدد عنه اللحم وهو صليب

وكان اول من خشّ الابل فى نفس عظم الانف وكان واليا فى الكوفة وكان فى تدبيره اضطراب وكانت الامراء تحب الى الرعية بزيادة المكاييل اماهو فنقصها ولم يزد فيها . وفى ذلك يقول بعض رجاز الكوفة

ياويلتا قد ذهب الوليد وجاءنا مجوّعا سعيد
ينقص في الصاع ولا يزيد

وكان ابنه من الخطباء ايضا وهو عمرو بن سعيد وكان يسمى الاشدق يقال ان ذلك انما قيل له لتشادقه في الكلام وقال آخرون بل كان افقم مائل الذقن ولذلك قال له عبيد بن زياد حين اهوى بيده الى عبدالله بن معاوية (يدك عنه يا لطيم الشيطان وياعاصي الرحمن) وهذا خلاف مايدل عليه قول الشاعر فيه

تشادق حتى مال بالقول شدقه وكل خطيب لاابالك اشدق

وكان معاوية قد دعا به مرة في غلمة من قريش فلما استنطقه قال ان اول كل مركب صعب وان مع اليوم غدا . وقال له معاوية الى من اوصى بك ابوك قال ان ابى قداوصى الى ولم يوص بى قال وبأى شئ اوصاك قال بان لايفقد اخوانه منه الا شخصه فقال معاوية عند ذلك ان ابن سعيد هذا هوالاشدق . فهذا ايضا يدل على انه انما سمّي الاشدق لمكان التشادق . ثم كان بعد عمرو بن سعيد سعيد بن عمرو بن سعيد خطيبا ايضا كابيه وجده وكان ناسبا ايضا وكان اعظم الناس كبرا وقيل له عند الموت ان المريض ليستريح الى الانين والى ان يصف مابه الى الطبيب فقال

اجاليد من ريب المنون فلا ترى على هالك عينا لنا الدهر تدمع

ودخل على عبدالملك مع خطباء قريش واشرافهم فتكلموا من قيام وتكلم وهو جالس فتبسم عبدالملك وقال لقد رجوت عثرته ولقد احسن حتى خفت عثرته . فسعيد بن عمرو بن سعيد خطيب ابن خطيب ابن خطيب .

ومن الخطباء سهيل بن عمرو الاعلم احد بنى حسل بن معيص وكان

يكنى ابايزيد وكان عظيم القدر شريف النفس صحيح الاسلام وكان قبل اسلامه يخطب ضدّ النبي صلى الله عليه وسلم وكان عمر بن الخطاب قال للنبي يارسول الله انزع ثنيتيه السفليين حتى يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً ابداً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا امثل فيمثل الله بي وان كنت نبياً دعه ياعمر فعسى ان يقوم مقاما تحمده . ثم انه اسلم فلما هاج اهل مكة عند الذى بلغهم من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم قام خطيبا فقال ايها الناس ان يكن محمد قدمات فان الله حى لم يمت وقد علمتم انى اكثركم قتبا فى بر وجارية فى بحر فاقروا اميركم وانا ضامن ان لم يتم الامر ان اردها عليكم. فسكن الناس. ووقف مرة على باب عمر بن الخطاب هو وعيينة بن حصن والاقرع بن حابس وجماعة من غيرهم فخرج الآذن فقال أين بلال أين صهيب أين سلمان أين عمار ولم يذكر غير هؤلاء فتمعرت وجوه القوم فقال سهيل لم تتمعر وجوهكم دعوا ودعينا فاسرعوا وابطأنا ولئن حسدتموهم على باب عمر لما اعدّ الله لهم فى الجنة اكثر .

ومن الخطباء من خزاعة بن مازن ابو عمرو وابو سفيان ابنا العلاء ابن عمار بن العريان فاما ابو عمرو فكان اعلم الناس بامور العرب مع صحة سماع وصدق لسان . قال الجاحظ وحدثنى الاصمعى قال جلست الى ابى عمرو عشر حجج ما سمعته يحتج ببيت اسلامى قال وقال مرة لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى هممت ان آمر فتياننا بروايته يعنى شعر جرير والفرزدق واشباههما . قال الجاحظ وحدثنى ابو عبيدة قال كان ابو عمرو اعلم الناس بالعرب والعربية وبالقراءة والشعر وايام الناس قال وكانت كتبه التى كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتا له الى قريب من السقف ثم انه تقرّأ فاحرقها كلها فلما رجع بعد الى علمه الاول لم يكن عنده الا ماحفظه بقلبه وكان عامة اخباره عن اعراب قد ادركوا الجاهلية وفى ابى عمرو بن العلاء يقول الفرزدق

مازلت افتح ابوابا واغلقها حتى اتيت ابا عمرو بن عمار

قال الجاحظ فاذا كان الفرزدق وهو راوية الناس وشاعرهم وصاحب اخبارهم يقول فيه مثل هذاالقول فهو الذى لايشك فى خطابته وبلاغته وقد قال يونس لولا شعر الفرزدق لذهب نصف اخبارالناس وفى ابى عمرو بن العلاء يقول مكى بن سوادة

الجامع العلم ننساه ويحفظه والصادق القول انانداده كذبوا

وكذلك اخوه ابو سفيان بن العلاء كان ناسبا خطيبا وكلاهما كناهما اسماؤهما .

ومن الخطباء خالد بن سلمة المخزومى من قريش وهو ذو الشفة قال الشاعر

فما كان قائلهم دغفل ولا الحيقطان ولا ذوالشفة

واجتمع يوما بجحدب التميمى وهو خطيب ايضا فقال له والله مالنت من حنظلة الاكرمين ولا سعد الاكثرين ولا عمرو الاسدين وما فى تميم خير بعد هؤلاء فقال له جحدب والله انك لمن قريش وما انت من بيتها ولا ثبوتها ولا من شوارها وخلافتها ولا من اهل سدانتها وسقايتها .

واما دغفل المذكور فى قول الشاعر المتقدم فهو دغفل بن يزيد ابن حنظلة الخطيب الناسب واما الحيقطان فهو عبد اسود وكان خطيبا لا يجارى . وقال عبدالملك لخالد بن سلمة المخزومى من اخطب الناس قال انا قال ثم من قال سيد جزام يعنى روح بن زنباع قال ثم من قال اخيفش ثقيف يعنى الحجاج قال ثم من قال امير المؤمنين قال ويحك جعلتنى رابع اربعة قال نعم هو ماسمعت . وذكر الجاحظ دغفلا وقال لم يدرك الناس مثله لسانا وعلما وحفظا قال ومن هذه الطبقة زيد بن كيس النمرى من بنى هلال وقال سماك العكلى

فسائل دغفلا واخا هلال ونخارا ينبؤك اليقينا

فاخو هلال هو زيد بن الكيس وبنو هلال حى من النمر بن قاسط .

ومن الخطباء عبيدالله بن زياد بن ظبيان التيمى العايشى وكان ابوه زياد خطيبا ايضا ودخل عبيدالله على ابيه وهو يكيد بنفسه فقال له ابوه ألا اوصى بك الامير زيادا قال لا قال ولم قال اذا لم يكن للحى الا وصية الميت فالحى هو الميت . واخذ هذا المعنى بعض الشعراء فنظمه فقال

اذا ماالحى عاش بظل ميت فذاك الميت حى وهو ميت

وكان عبيدالله افتك الناس واخطب الناس وهو الذى اتى باب ملك ابن مسمع ومعه نار ليحرق عليه داره وقد كان نابه امر فلم يرسل اليه قبل الناس فاشرف عليه ملك وقال مهلا يا ابا مطر فوالله ان فى كنانتى سهما انا به اوثق منى بك قال وانك لتعدنى فى كنانتك فوالله لوان قمت فيها لطلتها ولو قعدت فيها لخرقتها فقال ملك مهلا اكثر الله فى العشيرة مثلك قال لقد سألت الله شططا .

ودخل عبيدالله على عبدالملك بن مروان بعد ان اتاه برأس مصعب ابن الزبير ومعه ناس من وجوه بكر بن وائل فاراد ان يقعد معه على سريره فقال له عبدالملك مابال الناس يزعمون انك لاتشبه اباك قال والله لانا اشبه بابى من الليل بالليل والغراب بالغراب والماء بالماء ولكن ان شئت انبأتك بمن لايشبه اباه قال ومن ذاك قال من لم يولد لتمام ولم تنضجه الارحام ولم يشبه الاخوال والاعمام قال ومن ذاك قال ابن عمى سويد ابن منجوف قال عبدالملك أو كذلك انت ياسويد قال نعم فلما خرجا من عنده اقبل عليه سويد فقال وريت بك زنادى والله مايسرنى انك نقصته حرفا واحدا مما قلت له وان لى حمر النعم قال وانا والله مايسرنى بحلمك اليوم عنى سود النعم . قلت لله در عبيدالله كيف قدر ان يرد على عبدالملك قوله فى وجهه مواربة من حيث لم يدعه يشعر

بذلك ولله در سويد حيث علم ماأراد عبيدالله فصدقه . وقال اشيم بن شقيق ابن ثور لعبيدالله بن زياد بن ظبيان ماانت قائل لربك وقد حملت رأس مصعب بن الزبير الى عبدالملك بن مروان قال اسكت فانت يوم القيامة اخطب من صعصعة بن صوحان .

ومن الخطباء الذين لايضاهون ولايجارون عبدالله بن عباس قالوا خطبنا بمكة وعثمان رضي الله عنه محاصر خطبة لوشهدتها الترك والديلم لاسلمتا وذكره حسان بن ثابت فقال

اذا قال لم يترك مقالا لقائل　　بملتقطات لاترى بينها فضلا
كفى وشفى مافي النفوس ولم يدع　　لذى اربة في القول جدا ولاهزلا
سموت الى العليا بغير مشقة　　فنلت ذراها لادنيا ولاوغلا

قال الحسن كان عبدالله بن عباس اول من عرف بالبصرة صعدالمنبر فقرأ البقرة وآل عمران ففسرهما حرفا حرفا وكان والله مثجا يسيل غربا وكان يسمى البحر وحبر قريش وقال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل . ونظر اليه عمر وهو يتكلم فقال شنشنة اعرفها من اخزم اراد عمر رضي الله عنه انى اعرف فيك مشابهة لابيك في رأيه وعقله . ويقال انه لم يكن لقرشي مثل رأي العباس ويقال ايضا انه لم ير بنو اب ابعد قبورا من بنيه عبدالله بن عباس بالطائف والفضل بالشام وعبيدالله بالمدينة وقثم بسمرقند وسعد بافريقية .

ومن خطباء بني هاشم ايضا داود بن علي وكان يكنى ابا سليمان وكان انطق الناس واجودهم ارتجالا واقتضابا للقول ويقال انه لم يتقدم في تحبير خطبة قط قال الجاحظ وله كلام كثير معروف محفوظ فمن ذلك خطبته على اهل مكة (شكرا شكرا اما والله ماخرجنا لنحتفر فيكم نهرا ولا لنبنى فيكم قصرا اظن عدوالله ان لم نظفر به ان ارخى له في زمامه حتى عثر في فضل خطامه فالآن عادالامر في نصابه وطلعت

الشمس من مطلعها واخذ القوس باريها وعاد النبل الى النزعة ورجع الامر الى مستقره فى اهل بيت نبيكم اهل بيت الرأفة والرحمة) قال وفى كلامه هذا القليل تكرار كثير كما ترى .

ومن خطباء بنى هاشم ثم من ولد جعفر بن سليمان سليمان بن جعفر والى مكة قال المكى سمعت مشايخنا من اهل مكة يقولون انه لم يرد عليهم امير منذ عقلوا الكلام الا وسليمان ابين منه قاعدا واخطب منه قائما.

ومن الخطباء خالد بن صفوان الاهتمى وكذلك ابوه صفوان بن عبدالله ابن الاهتم كان خطيبا رئيسا. قال الجاحظ زعموا جميعا انه اى خالد بن صفوان كان عند ابى العباس امير المؤمنين وكان من سماره واهل المنزلة عنده ففخر عليه ناس من بالحارث بن كعب واكثروا فى القول فقال ابو العباس لم لا تتكلم يا خالد فقال اخوال امير المؤمنين وعصبته قال فانتم اعمام امير المؤمنين وعصبته قال خالد وما عسى ان اقول لقوم كانوا بين ناسج برد ودابغ جلد وسائس قرد وراكب عرد دل عليهم هدهد وغرقتهم فأرة وملكتهم امرأة . قال الجاحظ فلئن كان خالد قد فكر وتدبر هذا الكلام فانه للراوية الحافظ والمؤالف المجيد ولئن كان هذا شيأ حضره حين حرك وبسط فماله نظير فى الدنيا قال فتأمل هذا الكلام فانك ستجده مليحا مقبولا وعظيم القدر جليلا ولو خطب اليمانى بلسان سحبان وائل حولا كريتا ثم صك بهذه الفقرة ما قامت له قائمة . قال وكان خالد اذكر الناس لاول كلامه واحفظهم لكل شئ سلف من منطقه وقال مكى بن سوادة فى صفته له

عليم بتنزيل الكلام ملقن ذكور لما سداه اول اولا
يبذ قريع القوم فى كل محفل وان كان سحبان الخطيب ودغفلا
ترى خطباء الناس يوم ارتجاله كأنهم الكروان عاين اجدلا

وكان خالد يقارض شبيب بن شيبة لاجتماعهما على القرابة والمجاورة

والصناعة فذكر شبيب عنده مرة فقال ليس له صديق فى السر ولا عدو فى العلانية. قال الجاحظ وهذا كلام ليس يعرف قدره الا الراسخون فى هذه الصناعة وهو يدل على ان خالدا يحسن ان يسب سب الاشراف وكان خالد جميلا ولم يكن بالطويل فقالت له امرأة انك لجميل يا اباصفوان قال وكيف تقولين هذا وما فى عمود الجمال ولا رداؤه ولا برنسه فقيل له ماعمود الجمال فقال الطول ولست بطويل ورداؤه البياض ولست بابيض وبرنسه سواد الشعر وانا اشمط ولكن قولى انك لمليح ظريف قال الجاحظ ولكلام خالد كتاب يدور فى ايدى الوراقين .

ومن الخطباء حنظلة بن ضرار وهو من خطباء بنى ضبّة وقد ادرك الاسلام وطال عمره حتى ادرك يوم الجمل وقيل له مابقى منك قال اذكر القديم وانسى الحديث وآرق بالليل وانام وسط القوم . ومن خطباء بنى ضبة وعلمائهم منجور بن غيلان بن خرشة وكان مقدما فى المنطق وهو الذى كتب الى الحجاج انهم قد عرضوا علىّ الذهب والفضة فما ترى ان آخذ قال ارى ان تأخذ الذهب فذهب عنه هاربا ثم قتله بعد . وذكره القلاخ بن حزن المنقرى فقال

امثال منجور قليل ومثله فتى الصدق ان صفقته كل مصفق
وما كنت اشرى به بدنيا عريضة ولا بابن خال بين غرب ومشرق
اذا قال بذّ القائلين مقاله ويأخذ من اكفائه بالمخنق

ومن خطباء الخوارج قطرى بن الفجاءة احد بنى كنانة بن حرقوص وكنيته ابو نعامة فى الحرب واما فى السلم فكنيته ابو محمد. وقد ذكر الجاحظ غيره ممن كانت لهم كنيتان فى الحرب والسلم منهم عامر ابن الطفيل كانت كنيته فى الحرب ابا عقيل ويكنى فى السلم بابى على ومنهم يزيد بن مزيد يكنى فى السلم بابى خالد وفى الحرب بابى الزبير . وهو اعنى قطرى بن الفجاءة احد رؤساء الازارقة وكان خطيبا فارسا خرج

فى زمن مصعب بن الزبير وبقى عشرين سنة وكان آخر من بعث اليه سفيان بن الابرد الكلبي وقتله سورة بن الجبر الدارمى من بنى ابان بن دارم وله خطبة طويلة مشهورة سنذكرها فى الخطب .

ومن خطباء الخوارج ابن صديقة وهو القاسم بن عبدالرحمن بن صديقة وكان صفريا خطيبا ناسبا ويشوبه ببعض الظرف والهزل ومن علماء الخوارج شبيل بن عزرة الضبعى صاحب الغريب وكان راوية خطيبا وشاعرا ناسبا وكان سبعين سنة رافضيا ثم انتقل خارجيا صفريا .

ومن علماء الخوارج وخطبائهم وائمتهم الضحاك بن قيس احد بنى عمرو بن محلم بن ذهل بن شيبان ويكنى اباسعيد وقد ملك العراق وسار فى خمسين الفا وبايعه عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز وسليمان بن هاشم بن عبدالملك وصليا خلفه وقال شاعرهم

ألم تر ان الله اظهر دينه   وصلت قريش خلف بكر بن وائل

ومن خطبائهم وعلمائهم نصر بن ملحان وكان الضحاك ولاه الصلاة بالناس والقضاء بينهم . ومن علمائهم وخطبائهم وشعرائهم وقعدهم واهل الفقه منهم عمران بن حطان ويكنى اباشهاب وقد ذكرناه فيما سبق فى الخطباء الشعراء . ومن خطبائهم و فقهائهم و علمائهم المقعطل قاضى عسكر الازارقة ايام قطرى .

ومن الخطباء معبد بن طوق العنبرى دخل على بعض الامراء فتكلم وهو قائم فاحسن فلما جلس تلهيع فى كلامه فقال له ما اظرفك قائما واموقك قاعدا قال انى اذا قمت جددت واذا قعدت هزلت فقال له ما احسن ما خرجت منها .

ومن خطباء العرب المشهورين الذين يضرب بهم المثل فى الفصاحة والبيان سحبان وائل وله خطبة مشهورة تسمى الشوهاء وقيل ذلك لها من حسنها فان الشوهاء كما تطلق على القبيحة تطلق على الجميلة ايضا فهى

من الاضداد في اللغة . وذلك انه خطب بها عند معاوية فلم ينشد شاعر ولم يخطب خطيب . قال الجاحظ والعرب قد ذكروا من خطب العرب العجوز وهي خطبة لآل رقبة ومتى تكلموا فلابد لهم منها او من بعضها والعذراء وهي خطبة قيس بن خارجة لانه كان ابا عذرها والشوهاء وهي خطبة سحبان وائل .

ومن خطباء العرب ابو عمار الطائي كان خطيب مذحج كلها فبلغ النعمان حسن حديثه فحمله على منادمته وكان النعمان احمر العينين احمر الجلد احمر الشعر وكان شديد العربدة قتالا للندماء . فنهاه ابو قردودة الطائي عن منادمته فلما قتله رثاه فقال

اني نهيت ابن عمار وقلت له　　لا تأمنن احمر العينين والشعره
ان الملوك متى تنزل بساحتهم　　تطر بنارك من نيرانهم شرره
ياجفنة كازاء الحوض قدهدموا　　ومنطقا مثل وشي اليمنة الحبره

ومن خطباء غطفان في الجاهلية خويلد بن عمرو العشبراء بن جابر بن عقيل ابن هلال بن سمى بن مازن بن فزارة . وهو خطيب يوم الفجار المشهور من ايام العرب .

ومن الخطباء القدماء كعب بن لؤى وكان يخطب على العرب عامة ويحض كنانة خاصة على البر فلما مات اكبروا موته فلم تزل كنانة تؤرخ بموت كعب بن لؤى الى عام الفيل

ومن الخطباء مرة بن فهم التليد من خطباء عمان وهو الخطيب الذى اوفده المهلب الى الحجاج . ومن خطباء اليمن ثم من حمير الصباح بن شفى الحميرى وكان اخطب العرب . ومنهم ثم من الانصار قيس بن الشماس . ومنهم ثابت بن قيس بن الشماس وهو خطيب النبي صلى الله عليه وسلم ومن خطباء الانصار سعد بن الربيع وهو الذى اعترضت ابنته النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها من انت فقالت ابنة الخطيب النقيب الشهيد سعد بن الربيع .

ومن الخطباء الابيناء العلماء الذين جروا من الخطابة على اعراق قديمة شبيب بن شيبة بن عبدالله بن عبدالله بن الاهتم ويقال انهم لم يروا قط خطيبا بالبديا الا وهو فى اول تكلفه لتلك المقامات كان مستثقلا مستصلفا ايام رياضته كلها الى ان يتوقح وتستجيب له المعانى ويتمكن من الالفاظ الا شبيب ابن شيبة فانه ابتدأ بحلاوة ورشاقة وسهولة وعذوبة فلم يزل يزداد منها حتى صار فى كل موقف يبلغ بقليل الكلام مايبلغه الخطباء المصاقع بكثيره وقال الراجز .

اذا غدت سعد على شبيبها على فتاها وعلى خطيبها
من مطلع الشمس الى مغيبها عجبت من كثرتها وطيبها

قال الجاحظ وحدثنى صالح بن خاقان قال قال شبيب بن شيبة الناس موكلون بتفضيل جودة الابتداء وبمدح صاحبه وانا موكل بتفضيل جودة القطع وبمدح صاحبه وحظ جودة القافية وان كانت كلمة واحدة ارفع من حظ سائر البيت ثم قال شبيب فان ابتليت بمقام لابد لك فيه من الاطالة فقدم احكام البلوغ فى طلب السلامة من الخطل قبل التقدم فى احكام البلوغ فى شرف التجويد واياك ان تعدل بالسلامة شيأ فان قليلا كافيا خير من كثير غير شاف . وقال شبيب بن شيبة اطاب الادب فانه دليل على المروءة وزيادة فى العقل وصاحب فى الغربة وصلة فى المجالس . وقال شبيب للمهدى يوما اراك الله فى بنيك ما ارى اباك فيك واراى الله بنيك فيك مااراك فى ابيك . وقال المهدى . كان شبيب بن شيبة يسايرنى فى طريق خراسان فيتقدمنى بصدر دابته وقال لى ينبغى لمن ساير خليفة ان يكون بالموضع الذى اذا اراد الخليفة ان يسأله عن شئ لايلتفت اليه ويكون من ناحية ان التفت لم تستقبله الشمس قال فبينا نحن كذلك اذ انتهينا الى مخاضة فاقحمت دابتى ولم يقف واتبعنى فملأ ثيابى ماء وطينا قال فقلت يا ابا معمر ليس هذا فى الكتاب .

ومن الخطباء المصاقع جعفر بن يحيى بن خالد قال ثمامة بن اشرس كان جعفر بن يحيى انطق الناس قد جمع الهدو والتمهل والجزالة والحلاوة وافهاما يغنيه عن الاعادة ولوكان فى الارض ناطق يستغنى بمنطقه عن الاشارة لاستغنى جعفر عنها كما استغنى عن الاعادة. وقال مرة مارأيت احدا كان لايتحبس ولايتوقف ولايتلجلج ولايتنحنح ولايرتقب لفظا قداستدعاه من بعد ولايلتمس التخلص الى معنى قد تعصى عليه طلبه اشد اقتدارا ولا اقل تكلفا من جعفر بن يحيى. واشتهر جعفر بحسن التوقيع. قال الجاحظ قال جعفر بن سعيد رضيع ايوب بن جعفر وحاجبه قال ذكرت لعمرو بن مسعدة توقيعات جعفر بن يحيى فقال قد قرأت لام جعفر توقيعات فى حواشى الكتب واسافلها فوجدتها اجود اختصارا واجمع للمعانى وقال ثمامة سمعت جعفر بن يحيى يقول لكتابه ان استطعتم ان يكون كلامكم كله مثل التوقيع فافعلوا.

ومن الخطباء ثمامة بن اشرس الذى وصف لنا جعفر بن يحيى المتقدم ذكره آنفا بما وصف. قال الجاحظ وهذه الصفات التى ذكرها ثمامة ابن اشرس فوصف بها جعفر بن يحيى كان ثمامة قد انتظمها لنفسه واستولى عليها دون جميع اهل عصره قال وما علمت انه كان فى زمانه قروى ولابلدى كان بلغ من حسن الافهام مع قلة عدد الحروف ولامن سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ماكان بلغه وكان لفظه فى وزن اشارته ومعناه فى طبقة لفظه ولم يكن لفظه الى سمعك باسرع من معناه الى قلبك. وقال بعض الكتاب معانى ثمامة الظاهرة فى الفاظه الواضحة فى مخارج كلامه كما وصف الخزيمى شعر نفسه فى مديح ابى دلف حيث يقول

له كلم فيك معقولة ازاء القلوب كركب وقوف

ومن الخطباء زرعة بن ضمرة من بنى هلال بن عامر وهو الذى

قيل له لولا غلوّ فيه ما كان كلامه الا الذهب . وقام عند معاوية بالشام خطيبا فقال معاوية يا اهل الشام هذا خالى فأتونى بخال مثله . وكان ابنه النعمان بن زرعة بن ضمرة من اخطب الناس وهو احد من كان تخاص من الحجاج من قتل ابن الاشعث بالكلام اللطيف .

ومن الخطباء الحجاج بن يوسف الثقفى وهو الذى ولى العراق عشرين سنة ومات فى ايام الوليد بن عبدالملك بواسط المدينة التى بناها هو فى العراق وكانت وفاته فى رمضان سنة خمس وتسعين وله ثلاث وخمسون سنة . وقال ابن العربى فى المسامرات ان عدد من قتلهم الحجاج صبرا مائة وعشرون الفا قال ومات فى حبسه خمسون الف رجل وثلاثون الف امرأة . وكان الحجاج صغير العينين اخيفش مسلّق الاجفان ولذلك قال ابن ارقم النميرى وكان الحجاج جعله على بعض شرط ابان بن مروان ثم حبسه فلما خرج قال

طليق الله لم يمنن عليه ابوداود وابن ابى كثير
ولا الحجاج عينى بنت ماء تقلّب طرفها حذر الصقور

لان طير الماء لايكون ابدا الا منسلق الاجفان . قال ابوالحسن المدائنى قال الحجاج لانس بن مالك حين دخل عليه فى شأن ابنه عبدالله وكان خرج مع ابن الاشعث لا مرحبا بك ولا اهلا لعنة الله عليك من شيخ جوّال فى الفتنة مرّة مع ابى تراب ومرة مع ابن الاشعث والله لاقلعنّك قلع الصمغة ولاعصبنك عصب السلمة ولاجردنك تجريد الضب . قال انس من يعنى الامير ابقاه الله قال اياك اعنى اصم الله صداك . قال فكتب انس بذلك الى عبدالملك فكتب عبدالملك الى الحجاج بسم الله الرحمن الرحيم يا ابن المستفرمة بعجم الزبيب والله لقد هممت ان اركلك برجلى ركلة تهوى بها فى نار جهنم قاتلك الله اخيفش العينين اصك الرجلين اسود الجاعرتين والسلام . وقوله اصك الرجلين تصك احداهما الاخرى عند المشى

وقول الحجاج لانس لاعصبنك عصب السلمة معناه لاشدن يديك ورجليك لان الرعاة تعصب اغصان الاشجار بعضها الى بعض وتخبطها بالعصى حتى يسقط الورق فترعاه الماشية. قال ابو الحسن وغيره اراد الحجاج الحج فخطب الناس فقال ايها الناس انى اريد الحج وقد استخلفت عليكم ابنى محمدا هذا واوصيته بخلاف مااوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الانصار ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اوصى ان يقبل من محسنهم و يتجاوز عن مسيئهم ألا وانى قد اوصيته ان لا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم ألا وانكم ستقولون مقالة مايمنعكم من اظهارها الا مخافتى ألا وانكم ستقولون بعدى لا احسن الله له الصحابة ألا وانى معجل لكم الاجابة لا احسن الله الخلافة عليكم ثم نزل . وكان يقول فى خطبه ايها الناس ان الكف عن محارم الله ايسر من الصبر على عذاب الله. وخطب الحجاج يوما فقال ان الله امرنا بطلب الآخرة وكفانا مؤنة الدنيا فليتنا كفينا مؤنة الآخرة وامرنا بطلب الدنيا . فسمعها الحسن البصرى فقال هذه ضالة المؤمن خرجت من قلب المنافق . ولقى الحجاج اعرابيا فقال له مابيدك قال عصاى اركزها لصلاتى واعدها لعداتى واسوق بها دابتى واقوى بها على سفرى واعتمد عليها فى مشيتى ليتسع خطوى واثب بها على النهر وتؤمننى العثر والقى عليها كسائى فيقينى الحر ويجننى القر وتدنى الى مابعد عنى وهى محمل سفرتى وعلاقة اداوتى اقرع بها الابواب والقى بها عقور الكلاب وتنوب عن الرمح فى الطعان وعن السيف عند منازلة الاقران ورثتها عن ابى وساورثها ابنى من بعدى واهش بها على غنمى ولى فيها مآرب اخرى . فبهت الحجاج وانصرف .

قال الهيثم بن عدى قدمت وفود العراق على سليمان بن عبد الملك بعدما استخلف وكان حاقدا على الحجاج يبغضه اشد البغض فامر الوفود بشتم الحجاج فقاموا يشتمونه فقال بعضهم ان عدو الله الحجاج كان زبابا

قوّر بن قنور لانسب له فى العرب فقال سليمان أى شتم هذا ان عدوالله الحجاج كتب الىّ انما انت نقطة من مداد فان رأيت فىّ مارأى ابوك واخوك كنت لك كما كنت لهما والا فانا الحجاج وانت النقطة فان شئت محوتك وان شئت اثبتك فالعنوه لعنه الله . فاقبل الناس يلعنونه فقام ابن ابى بردة بن ابى موسى الاشعرى فقال يا اميرالمؤمنين انا نخبرك عن عدوالله بعلم قال هات قال كان عدوالله يتزين تزين المومسة ويصعد المنبر فيتكلم بكلام الاخيار فاذا نزل عمل عمل الفراعنة واكذب فى حديثه من الدجال فقال سليمان لرجاء بن حيوة هذا وابيك الشتم لا ما تأتى به السفلة وقوله زباب هو كسحاب فأر عظيم اصم تضرب العرب به المثل فى السرقة فتقول اسرق من زبابة والقنور الشرس الصعب .

وخطب الوليد بن عبدالملك فقال ان اميرالمؤمنين عبدالملك كان يقول ان الحجاج جلدة مابين عينىّ ألا وانه جلدة وجهى كله . وقوله ان الحجاج مابين عيني كناية عن انه عزيز مكرّم عنده قال الشاعر

يديروننى عن سالم واديرهم   وجلدة بين العين والانف سالم

وخطب الوليد ايضا بعد وفاة الحجاج وتوليته يزيد بن ابى مسلم مكانه فقال انما مثلى ومثل يزيد بن ابى مسلم بعد الحجاج كمن سقط منه درهم فاصاب دينارا .

وقال ابوالحسن وغيره قالوا دخل يزيد بن ابى مسلم على سليمان ابن عبدالملك وكان يزيد دميما فلما رآه سليمان قال على رجل اجرّك رسنك وسلّطك على المسلمين لعنة الله فقال يااميرالمؤمنين انك رأيتنى والامر عنى مدبر ولو رأيتنى والامر علىّ مقبل استعظمت من امرى ما استصغرت قال فقال سليمان أفترى الحجاج بلغ قعر جهنم بعد فقال يزيد يااميرالمؤمنين يجئ الحجاج يوم القيامة بين ابيك واخيك قابضا على يمين ابيك وشمال اخيك فضعه من النار حيث شئت .

وذكر صالح بن سليمان عن عتبة بن عمر بن عبدالرحمن بن الحارث قال مارأيت عقول الناس الا قريبا بعضها من بعض الا ماكان من عقل الحجاج بن يوسف واياس بن معاوية فان عقولهما كانت ترجح على عقول الناس كثيرا . وقال رؤبة بن العجاج وابو عمرو بن العلاء انهما لم يريا قرويين افصح من الحسن والحجاج . وقال ابوالحسن قال الحجاج لمعلم ولده علّم ولدى السباحة قبل الكتابة فانهم يصيبون من يكتب عنهم ولا يصيبون من يسبح عنهم . قال وضرب الحجاج اعناق اسرى فلما قدموا اليه رجلا ليضرب عنقه قال والله لئن كنا اسأنا فى الذنب فما احسنت فى العفو فقال الحجاج أفّ لهذه الجيف أما كان فيها احد يحسن مثل هذا . وامسك عن القتل . قال ابوالحسن اول من اجرى فى البحر السفن المقيّرة المسمرة غير المخرزة والمدهونة وغير ذوات الجآجى وكان اول من عمل المحامل ايضا الحجاج وفيه قال بعض الرجاز

اول عبد عمل المحاملا اخزاه ربى عاجلا وآجلا

ولما مات الحجاج خرجت عجوز من داره وهى تقول

اليوم يرحمنا من كان يغبطنا واليوم نتبع من كانوا لنا تبعا

ومن الخطباء واصل بن عطاء وكنيته ابو حذيفة وهوالذى زعم ان جميع المسلمين كفروا بعدوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل له وعلى ايضا فانشد

وماشرّ الثلاثة ام عمرو بصاحبك الذى لاتصبحينا

وكان واصل بن عطاء ذا لثغة فى حرف الراء وكان قبيح اللثغة شنيعها ولا يستطيع النطق بها البتة ولكنه مع لثغته فى حرف الراء كان من الفصاحة بالمكان الاعلى لانه كان ذا قدرة عظيمة على البيان بحيث

كان يجنب الراء اذا خطب ويسقطها من كلامه اذا تكلم فجاءت خطبه خالية من شناعة تلك اللثغة . قال الجاحظ ومن اجل الحاجة الى حسن البيان واعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة رام ابوحذيفة اسقاط الراء من كلامه واخراجها من حروف منطقه فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه ويناضله ويساجله ويتأتى لسره والراحة من هجنته حتى انتظم له ماحاول واتسق له ما امل حتى صار لغرابته مثلا ولظرافته معلما قال ولولا استفاضة هذا الخبر وظهور هذه الحال لما استجزنا الاقرار به والتأكيد له قال ولست اعنى خطبه المحفوظة ورسائله المخلدة لان ذلك يحتمل الصنعة وانما عنيت محاجة الخصوم ومناقلة الاكفاء ومفاوضة الاخوان .

واجتمع بعض الخطباء مرّة عند عبدالله بن عبدالعزيز والى العراق وهم خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة والفضل بن عيسى وكان واصل ابن عطاء معهم فخطبوا وارتجل هو خطبة نزع منها الراء فكانت مع ذلك اطول من خطبهم . وكان بشار بن برد كثير المدح لواصل بن عطاء قبل ان يدين بالرجعة ويكفر جميع الامة وكان قد فضله على خالد ابن صفوان وشبيب بن شيبة والفضل بن عيسى يوم خطبوا عند عبدالله ابن عمر بن عبدالعزيز فقال

ابا حذيفة قد اوتيت معجبة   من خطبة بدهت من غير تقدير
وان قولا يروق الخالدين معا   لمسكت مخرس عن كل تحبير

وقال بشار ايضا

تكلف القول والاقوام قد حفلوا   وحبّروا خطبا ناهيك من خطب
فقام مرتجلا تغلى بداهته   كمرجل القين لما حفّ باللهب
وجانب الراء لم يشعر به احد   قبل التصحف والاغراق فى الطلب

وقال فى كلمة له يعنى تلك الخطبة ايضا

فهذا بديه لا كتحبير قائل   اذا ما اراد القول زوّده شهرا

وقال صفوان الانصارى فى ذلك ايضا

فسائل بعبدالله فى يوم حفله ‌ ‌ ‌ وذاك مقام لايشاهده وغد
اقام شبيبا وابن صفوان قبله ‌ ‌ ‌ بقول خطيب لايجانبه القصد
وقام ابن عيسى ثم قفاه واصل ‌ ‌ ‌ فابدع قولا ماله فى الورى ند
فما نقصته الراء اذ كان قادرا ‌ ‌ ‌ على تركها واللفظ مطرد سرد
ففضل عبدالله خطبة واصل ‌ ‌ ‌ وضوعف فى قسم الصلات له الشكد
فاقنع كل القوم شكر حبائهم ‌ ‌ ‌ وقلل ذاك الضعف فى عينه الزهد

والبشكد هو العطاء . وبالجملة فقد كان واصل بن عطاء فى تركه الراء فى خطبه ومحاوراته آية من آيات البلاغة ولما هجا بشار واصلا وصوب رأى ابليس فى تقديم النار على الطين قال واصل عند ذلك « أما لهذا الملحد الاعمى المشنف المكتنى بابى معاذ من يقتله اما والله لولا ان الغيلة سجية من سجايا الغالية لبعثت اليه من يبعج بطنه على مضجعه ويقتله فى جوف منزله وفى يوم حفله ثم كان لايتولى ذلك الاعقيلى اوسدوسى » فانظر كيف تجنب الراء فى كلامه هذا مع ماترى من سلامته وقلة ظهور التكلف فيه حتى انك لاتظن به التكلف مع امتناعه من حرف كثير الدوران فى الكلام ألاترى انه حين لم يستطع ان يقول بشار وابن برد قال المكتنى بابى معاذ وحين لم يستطع ان يقول المرعث جعل المشنف بدلا من المرعث والملحد بدلا من الكافر وقال ان الغيلة سجية من سجايا الغالية ولم يذكر المنصورية ولا المغيرية لمكان الراء وقال لبعثت اليه من يبعج بطنه ولم يقل لارسلت اليه من يبقر بطنه وقال على مضجعه ولم يقل فراشه . وكان واصل اذا اراد ان يذكر البر قال القمح والحنطة والقمح لغة شامية والحنطة لغة كوفية هذا وهو يعلم ان لغة من قال بر افصح من لغة من قال قمح او حنطة قال قطرب انشدنى ضرار بن عمرو قول الشاعر فى واصل

ويجعل البر قمحا فى تصرفه ‌ ‌ ‌ وجانب الراء حتى احتال للشعر
ولم يطق مطرا والقول يعجله ‌ ‌ ‌ فعاد بالغيث اشفاقا من المطر

قال وسألت عثمان البري كيف كان واصل يصنع فى العدد فكيف كان يصنع بعشرة وعشرين واربعين وكيف كان يصنع فى القمر والبدر ويوم الاربعاء وشهر رمضان وكيف كان يصنع بالمحرم وصفر وربيع الاول وربيع الآخر وجمادى الآخرة ورجب فقال مالى فيه قول الاما قال صفوان:

ملقن ملهم فيما يحاوله ‏ ‏ ‏ جم خواطره جوّاب آفاق

وكان واصل طويل العنق جدا وكان يلقب بالغزال قال بشار :

مالى اشايع غزالا له عنق ‏ ‏ ‏ كنقنق الدوّان ولىّ وان مثلا

ومما يدل على انه كان غزالا قول اسحاق بن سويد العدوى

برئت من الخوارج لست منهم ‏ ‏ ‏ من الغزال منهم وابن باب
ومن قوم اذا ذكروا عليا ‏ ‏ ‏ يردون السلام على السحاب
ولكنى احب بكل قلبى ‏ ‏ ‏ واعلم ان ذاك من الصواب
رسول الله والصديق حبا ‏ ‏ ‏ به ارجو غدا حسن المآب

وقال قوم ان واصل بن عطاء لم يكن غزالا وانما قيل له الغزال لكثرة جلوسه فى سوق الغزالين الى ابى عبدالله مولى قطن الهلالى فقول الناس واصل الغزال هو كقولهم لخالد الفقيه خالد الحذاء مع انه لم يكن حذاء بل كان ايضا يكثر الجلوس فى سوق الحذائين وكقولهم هشام الدستوانى لأن الاباضية كانت تبعث اليه من صدقاتها بثياب دستوانية فكان يكسوها الاعراب الذين يكونون بالجباب فاجابوه الى قول الاباضية وكانوا قبل ذلك لا يزوّجون الهجناء فاجابوه الى التسوية وزوجوا محينا . وكما قالوا ابومسعود البدرى لانه كان نازلا على ذلك الماء وكما قالوا ابومالك السدى لانه كان يبيع الخمر فى سدة المسجد. فهذا هو احتجاج الذين زعموا ان واصلا لم يكن غزالا ومهما كان فان واصلا كان يلقب بالغزال سواء كان غزالا اولم يكن .

قد ذكرنا لك جملة من الخطباء الاولين ممن ذكرهم الجاحظ فى كتاب

البيان ولكن لا على هذا الترتيب الذى رتبناه ولقد ضربنا صفحا عن ذكر كثيرين منهم اذ ليس من غرضنا استقصاء الخطباء هنا وانما اثبتنا منهم هذه الجملة ليكونوا نموذجا للقارئ وقدوة لمن حاول هذه الصنعة ونزع فى منطقه هذه النزعة ولنذكر الآن بعض من عرفنا من خطباء عصرنا فنقول .

العرب اليوم اشبه ببنى اسرائيل وهم فى التيه وشرح هذه القضية يطول سوى اننا نقول ان فساد اللسان وجور الزمان واختلال السليقة وضعف السجايا وخور العزائم واختلاف الاهواء لمن الاسباب التى انزلت العرب اليوم فى الدرك الاسفل من المحشر البشرى بعد ان صبغتهم بصبغة العجمية وجعلتهم عباديد متفرقين شذر مذر . وان شئت ان تجمع هذه الاسباب كلها تحت سبب عام فقل الجهل الطويل العريض الصفيق الوثيق الذى هو على حد قول الشاعر

وما انت ممن يجهل العلم وحده   بل الجهل ايضا بل وجهلك بالجهل

اذا كان الامر كذلك فلا عجب ان نجد خطباء العربية قليلين فى هذا العصر معدودين بالاصابع لاننا اليوم فى زمان ننشد فيه

اتى الزمان بنوه فى شبيبته   فسرّهم واتيناه على الهرم

فمن خطباء العصر الذين عرفناهم عبد العزيز التونسى وقد اجتمعت به فى قسطنطينية قبل بضع سنين فرأيته من ابين الناس وكنت معجبا بحسن بيانه جدا وهو يتكلم بالعربية الفصحى دون تلجلج ولا تلعثم وقد اخبرونى عنه انه يخطب بالفرنساوية كما يخطب بالعربية .

ومنهم الشيخ عبد العزيز شاويش العالم النحرير والكاتب الشهير صاحب مجلة الهداية وله كتب ورسائل مشهورة وله تفسير للقرآن بديع جدا وهو من زعماء الحزب الوطنى فى مصر وقد اثار بكتاباته حربا عوانا على الانكليز بمصر وكان قد ناوء فى مجرى السياسة خديوى مصر عباس حلمى باشا الذى كان من ديدنه الخنوع للانكليز وضايقته الحكومة

المصرية حتى اضطر ان بارح القاهرة وقدم القسطنطينية فانضم الى حزب الاتحاديين فيها وهناك تعرفت به وكثيرا مازرته وجاست اليه ثم ان الحكومة المصرية طلبته مرة من حكومة القسطنطينية ولم يكن الحكم اذ ذاك للاتحاديين بل كان رئيس الوزارة يومئذ احمد مختار باشا الملقب بالغازى فاسلمه احمد مختار باشا الى الحكومة المصرية فشق ذلك على الاتحاديين واستاؤا منه وابتأسوا به وقد قلت فى ذلك قصيدة اخاطبه بها قلت فيها بعد ذكر ماجرى

ان العلى همست اليك بسرها ولقد فهمت كلامها المهموسا
فنهضت بين المسلمين تلمهم وتجد منهم مخلقا ودريسا
فرماك منهم حاسدوك بتهمة ملأوا الفضاء زورها تدليسا
ان يبغضوك فان حبك لم يزل فى قلب كل موحد مغروسا
والشمس تشهد ان فضلك مثلها يحيى النفوس ويقتل الخنديسا
ياليت شعرى أى كأس مرة لك اذهقوا مذجرعوك البوسا
وبأى سلسلة رموك مكبلا وبأى سجن غادروك حبيسا
قد بت من جزعى عليك منجما فى الليل عنك اسائل البرجيسا
ان يسجنوك فان ذكر مطلق يجنى الثناء ويقطف التقديسا
اويوحشوك بقعر سجنك مفردا فالحق عندك قد اقام انيسا
ولئن لقيت اذى فكم من مصالح لقى الاذاة منجعا متعوسا

ومن خطباء العصر الامير شكيب ارسلان وهو عربى قح من ذوى الفصاحة واللسن يتكلم بكلام الاعراب الاقحاح وقد برز فى صناعتى المنظوم والمنثور وهو فى كلتيهما ينسج نسيج البداوة على منوال الحضارة فترى فى شعره وكتاباته جزالة البدوى ورقة الحضرى وهل هو فى كتابته ابرع منه فى شعره اوالامر بالعكس هذا ما اتردد فى الجواب عليه الآن لان الذى قرأته من رسائله واشعاره فى الصحف السيارة قليل جدا بالنسبة الى مافاتنى ولم اره والحكم البات متوقف على استقراء ذلك

واستقصائه . والامير شكيب من بيت رفيع العماد من امراء لبنان ويقال ان نسبه ينتهى الى النعمان بن المنذر .

ومن الخطباء الشيخ صالح الشريف التونسى وهو من العلماء الفضلاء وقد شهدت له خطبة خطبها مرة فى قسطنطينية تكلم فيها على العصبية القومية بكلام احسن فيه الا انى رأيته يتشادق فى القول .

ومن الخطباء الشيخ اسعد شقير وهو ذو بداهة فاق فيها على خطباء عصره فتراه اذا خطب مثجا يقتضب الكلام اقتضابا الا انه من جهة الفاظه لا يعد من المبرزين فى الفصاحة وهو مع ذلك مكثار يكاد فى كثرة كلامه يجنح الى الثرثرة وقد شهدت بعض خطبه فى قسطنطينية وهو يحسن الخطابة بالتركية ايضا كالعربية .

ومن الخطباء محمد كرد على صاحب مجلة المقتبس وهو عالم فاضل ذو بحث وتنقيب فى العلم لا يجاريه فيه احد وهو من مشاهير الكتاب فى هذا العصر بارع جدا فى ترسله الا انك تحس فى كتابته بشئ من الجفاف ووحدة السياق وذلك مغتفر فى جنب ماترى فيها من السهولة وحسن الاتساق ومحمد كرد على اول صديق صادقته على الغياب اذ كنت اكاتبه وهو بمصر حيث كان ينشر مجلته المقتبس ثم انه عاد الى وطنه دمشق الشام واخذ ينشر فيها مجلته مع صحيفة يومية باسم المقتبس ايضا وقد اجتمعت به هناك لما عجت على دمشق فى طريقى الى قسطنطينية وهو اليوم فى دمشق .

ومن الخطباء الشيخ رشيد رضا صاحب مجلة المنار بمصر وهو عالم فاضل ومعدود فى الكتاب الا ان اسلوبه فى الكتابة هزيل معروق لا يسمن ولا يغنى من جوع وهو الى العام اقرب منه الى الفصاحة واللسن وقد شهدت خطبة له خطبها فى قسطنطينية فرأيت فيه من معايب الخطيب انه ضئيل الصوت ولضؤلة صوته كان يتشادق فى كلامه تشادقا باردا جدا وفيه ايضا لثغة خفيفة فى حرف الراء وفيه لكنة عامية ايضا فانه

اذا قال كذا قال كزا واذا قال ذلك قال زالك واذا قال نظرت قال نزرت الا انه مكثار جدا لايعجز عن الاطالة وربما خرج عن اول الكلام الى ما لايقتضيه المقام ولولا ذلك لحمدت منه الاطالة .

ومن الخطباء الشيخ مصطفى الغلايينى صاحب مجلة النبراس ببيروت وهو معدود فى العلماء والكتاب والشعراء ايضا الا انه لايجيد فى شعره كما يجيد فى كتابته وله كتب ورسائل غير قليلة وقد اجتمعت به فى بيروت الا انى لم اشهد شيا من خطبه وقد اخبرت عنه انه مفوه يسيل غربا فى الخطابة.

ومن خطباء العصر فيلكس فارس صاحب جريدة الاتحاد ببيروت وهو ذو قدم راسخة فى الادب وهو خطيب وكاتب وشاعر لكنه فى كتابته اعلى منه فى شعره وهو ايضا يجيد الترجمة من الفرنساوية الى العربية وقد اجتمعت به مرة فى حلب فقر ألى شعرا منثورا للشاعر الفرنساوى فيكتور هوكو كان قد ترجمه الى العربية فاحسن فيه كل الاحسان وهو معدود فى الخطباء المبرزين.

ومن الخطباء المبرزين فى الخطابة الاديب الفاضل اسكندر العازار وقد اجتمعت به فى بيروت وهو من الخطباء المشهورين فى تلك الديار وهو اذا خطب يشوب كلامه ببعض الظرف والهزل وهو شاعر ايضا .

ومن خطباء تلك الديار الياس طراد العالم الفاضل وكذلك ابراهيم الحورانى وانطون شحيبر وامين الريحانى وبشارة الخورى صاحب جريدة البرق وداود مجاعص صاحب مجلة الحرية وغيرهم ممن لا اتذكر اسماءهم الآن وهؤلاء كلهم من لبنان وكلهم خطباء وفيهم الشاعر المجيد كبشارة الخورى والفيلسوف الحكيم كامين الريحانى والكاتب البارع كداود مجاعص.

المبحث السابع عشر

فى

ذكر بعض الخطب المشهورة

خطبة لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : انما الدنيا امل مخترم واجل

متقض وبلاغ الى دار غيرها وسير الى الموت ليس فيه تعريج فرحم الله امرأ فكّر فى امره ونصح لنفسه وراقب ربه واستقال ذنبه بئس الجار الغنى يأخذ بما لايعطيك من نفسه فان ابيت لم يعذرك . اياكم والبطنة فانها مكسلة عن الصلاة ومفسدة للجسم ومؤدية الى السقم وعليكم بالقصد فى قوتكم فهو ابعد من السرف واصح للبدن واقوى على العبادة وان العبد لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه .

وله ايضا من خطبة فى الحث على السعى قال :

لا يقعد احدكم عن طلب الرزق وهو يقول اللهم ارزقنى وقد علم ان السماء لم تمطر ذهبا ولا فضة والله تعالى انما يرزق الناس بعضهم من بعض فقد قال تعالى فاذا قضيت الصلوة فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون .

(خطبة لمعاوية بن ابى سفيان)

قال الجاحظ رواها شعيب بن صفوان وزاد فيها اليقطرى وغيره قالوا لما حضرت معاوية الوفاة قال لمولى له من بالباب قال نفر من قريش يتباشرون بموتك فقال ويحك ولم قال لا ادرى قال فوالله مالهم بعدى الا الذى يسؤهم واذن للناس فدخلوا فحمدالله واثنى عليه واوجز ثم قال ياايها الناس انا قد اصبحنا فى دهر عنود وزمن شديد يعد فيه المحسن مسيئا ويزداد فيه الظالم عتوا لانتفع بما علمناه ولا نسأل عما جهلناه ولا نخوف قارعة حتى تحل بنا فالناس على اربعة اصناف منهم من لا يمنعه من الفساد فى الارض الامهانة نفسه وكلال حده ونضيض وفره ومنهم المصلت لسيفه المجلب بخيله ورجله والمعلن بشره قد اشرط نفسه واوبق دينه لحطام ينتهزه اومقنب يقوده او منبر يفرعه ولبئس المتجر ان تراها لنفسك ثمنا ولمالك عندالله عوضا ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة ولايطلب الآخرة بعمل الدنيا فقد طامن من شخصه

وقارب من خطوه وشمّر من ثوبه وزخرف نفســه للامانة واتخذ ستر الله ذريعة للمعصية ومنهم من اقعده عن طلب الملك ضؤولة نفسه وانقطاع سببه فقصرت به الحال عن امله فتحلى باسم القنـاعة وتزين بلبـاس الزهاد وليس من ذلك فى مراح ولامغدى وبقى رجال غض ابصارهم ذكر المرجع واراق دموعهم خوف المحشر فهم بين شريد نافر وخائف منقمع وسـاكت مكعوم وداع مخلص وموجع ثكلان قد اخملتهم التقية وشملتهم الذلة فهم بحر اجاج افواههم ضامرة وقلوبهم قرحة قد وعظوا حتى ملوا وقهروا حتى ذلوا وقتلوا حتى قلوا فلتكن الدنيـا فى اعينكم اصغر من حثالة القرظة وقراضـة الجلمين واتعظوا بمن كان قبلكم قبل ان يتعظ بكم من بعدكم فارفضوها ذميمة فانها قد رفضت من كان اشغف بها منكم .

قال الجاحظ وفى هذه الخطبة ضروب من العجب منها ان هذا الكلام لايشبه السبب الذى من اجله دعاهم معاوية ومنها ان هذا المذهب فى تصنيف الناس وفى الاخبار عنهم وعماهم عليه من القهر والا ذلال من التقية والخوف اشبه بكلام علىّ وبمعانيه وبحاله منه بحال معاوية ومنها انا لم نجد معاوية فى حال من الحالات يسلك فى كلامه مسلك الزهاد ولايذهب مذاهب العباد قال وانما نكتب لكم ونخبر بما سـمعناه انتهى قلت اما انا فلا ارى فى هذه الخطبة شيأ من العجب ذلك لان معاوية انما دعاهم واذن لهم بالدخول لمـا سمع من انهم شامتون به يتباشرون بموته فاراد ان يكلمهم بكلام الواعظ المقرع والزاجر الموبخ فسلك فى كلامه مسـلك الزهاد جريا على ما اقتضاه المقام وفى كل جملة من كلامه هذا تعريض بهم كما هو ظاهر واما ان هذا الكلام اشبه بكلام على وبمعانيه فقد قلنا ان معاوية تعمد فى هذا المقام التشبه بعلى وامثاله توصلا الى تبكيت حاسديه الشامتين دون ان يظهر لهم جزعا من الموت ولعمرى ان هذا مما يدل على دهاء معاوية وحسن تجلده .

(خطبة لعبدالله بن الاهتم عند عمر بن عبدالعزيز)

قال الجاحظ قال ابوالحسن عن يحيى بن سعيد عن ابن خربوز البكرى عن خالد بن صفوان قال دخل عبدالله بن الاهتم على عمر بن عبدالعزيز مع العامة فلم يفجأ عمر الا وهو ماثل بين يديه يتكلم فحمدالله واثنى عليه ثم قال اما بعد فان الله خلق الخلق غنيا عن طاعتهم آمنا لمعصيتهم والناس يومئذ فى المنازل والرأى مختلفون والعرب بشر تلك المنازل اهل الوبر واهل المدر تحتاز دونهم طيبات الدنيا ورفاغة عيشها ميتهم فى النار وحيهم اعمى مع ما لا يحصى من المرغوب عنه والمزهود فيه فلما اراد الله ان ينشر فيهم رحمته بعث اليهم رسولا منهم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم فلم يمنعهم ذلك ان جرحوه فى جسمه ولقبوه فى اسمه ومعه كتاب من الله لا يرحل الا بامره ولا ينزل الا باذنه واضطروه الى بطن غار فلما امر بالعزامة اصفر لامر الله لونه فافلج الله حجته واعلى كلمته واظهر دعوته ففارق الدنيا نقيا تقيا صلى الله تعالى عليه وسلم ثم قام بعده ابوبكر رضى الله عنه فسلك سنته واخذ بسبيله وارتدت العرب فلم يقبل منهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الا الذى كان قابلا منهم فانتضى السيوف من اغمادها واوقد النيران من شعلها ثم ركب باهل الحق اهل الباطل فلم يبرح يفصّل اوصالهم ويسقى الارض دماءهم حتى ادخلهم فى الذى خرجوا عنه وقررهم بالذى نفروا منه وقد كان اصاب من مال الله بكرا يرتوى عليه وحبشية ترضع ولداله فرأى ذلك غصة عند موته فى حلقه فادى ذلك الى الخليفة من بعده وبرئ اليهم منه وفارق الدنيا تقيا نقيا على منهاج صاحبه رضى الله تعالى عنه ثم قام من بعده عمر بن الخطاب رضى الله عنه فمصّر الامصار وخلط الشدة باللين فحسر عن ذراعيه وشمّر عن ساقيه واعد للامور اقرانها وللحرب آلتها فلما اصابه قن المغيرة بن شعبة امر

ابن عباس ليسأل الناس هل يثبتون قاتله فلما قيل له قن المغيرة استهل بحمدالله ان لايكون اصابه ذوحق فى الفئ فيستحل دمه بما استحل من حقه وقد كان اصاب من مال الله بضعا وثمانين الفا فكسر بها رباعه وكره بها كفالة اهله وولده فادى ذلك الى الخليفة من بعده وفارق الدنيا تقيا نقيا على منهاج صاحبه رضى الله تعالى عنهما ثم انا والله ما اجتمعنا بعدها الا على ظلع ثم انك ياعمر ابن الدنيا ولدتك ملوكها والقمتك ثديها فلما وليتها القيتها حيث القاها الله فالحمدلله الذى جلا بك حوبتها وكشف بك كربتها امض ولا تلتفت فانه لايغنى من الحق شيأ اقول قولى هذا واستغفر الله لكم وللمؤمنين والمؤمنات .

قال ولما ان قال ثم انا والله ما اجتمعنا بعدها الا على ظلع سكت الناس كلهم الا هشاما فانه قال كذبت .

(خطبة لعمر بن عبدالعزيز)

قال ابوالحسن حدثنا المغيرة بن مطرف عن شعيب بن صفوان عن ابيه قال خطب عمر بن عبدالعزيز بخناصرة خطبة لم يخطب بعدها حتى مات رحمه الله . فحمدالله واثنى عليه ثم قال ايها الناس انكم لم تخلقوا عبثا ولم تتركوا سدى وان لكم معادا يحكم الله فيه بينكم فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التى وسعت كل شئ وحرم الجنة التى عرضها السموات والارض واعلموا ان الامان غدا لمن خاف ربه وباع قليلا بكثير وفانيا بباق ألا ترون انكم فى اسلاب الهالكين وسيخلفها من بعدكم الباقون كذلك حتى تردوا الى خير الوارثين ثم انتم فى كل يوم تشيعون غاديا ورائحا الى الله قد قضى نحبه وبلغ اجله ثم تغيبونه فى صدع من الارض ثم تدعونه غير موسد ولا ممهد قد خلع الاسباب وفارق الاحباب وواجه الحساب غنيا عما ترك فقيرا الى ما قدم وايم الله انى لاقول لكم هذه المقالة وما اعلم عند احد منكم من الذنوب اكثر مما عندى فاستغفر الله لى . ولكم

وماتبلغنا حاجة يتسع لها ماعندنا الا سددناها ولا احد منكم الا وددت ان يده مع يدى ورحمى الذين يلوننى حتى يستوى عيشنا وعيشكم وايم الله ان لو اردت غير هذا من عيش او غضارة لكان اللسان منى ناطقا ذلولا عالما باسبابه لكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة دل فيها على طاعته ونهى فيها عن معصيته . ثم بكى فتلقى دموع عينيه بطرف ردائه ثم نزل فلم ير على تلك الاعواد حتى قبضه الله .

(خطبة ابى حمزة الخارجى)

قال الجاحظ دخل ابو حمزة الخارجى مكة وهو احد نساك الاباضية وخطبائهم واسمه يحيى بن المختار فصعد منبرها متوكئا على قوس له عربية فحمد الله واثنى عليه ثم قال ايها الناس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يتأخر ولا يتقدم الا باذن الله وامره ووحيه انزل الله له كتابا بين له فيه ماياتى ومايتقى فلم يكن فى شك من دينه ولا شبهة فى امره . ثم قبضه الله اليه وقد علم المسلمين معالم دينهم وولى ابابكر صلاتهم فولاه المسلمون امر دنياهم حين ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم امر دينهم فقاتل اهل الردة وعمل بالكتاب والسنة فمضى لسبيله رضى الله تعالى عنه . ثم ولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فسار بسيرة صاحبه وعمل بالكتاب والسنة وجبى الفئ وفرض الاعطية وجمع الناس فى شهر رمضان وجلد فى الخمر ثمانين وغزا العدو فى بلادهم ومضى لسبيله رضى الله تعالى عنه . ثم ولى عثمان بن عفان فسار ست سنين بسيرة صاحبيه وكان دونهما ثم سار فى الست الاواخر بما احبط به الاوائل ثم مضى لسبيله رضى الله تعالى عنه . ثم ولى على بن ابى طالب فلم يبلغ من الحق قصدا ولم يرفع له منارا ثم مضى لسبيله رضى الله تعالى عنه . ثم ولى معاوية بن ابى سفيان لعين رسول الله وابن لعينه اتخذ عباد الله خولا ومال الله دولا ودينه دغلا ثم مضى لسبيله فالعنوه لعنه الله . ثم ولى يزيد بن معاوية يزيد الخمور ويزيد القرود ويزيد الفهود الفاسق فى بطنه المأبون فى فرجه . ثم اقتصهم

خليفة خليفة فلما انتهى الى عمر بن عبدالعزيز اعرض عنه ولم يذكره . ثم قال ثم ولى يزيد بن عبدالملك الفاسق فى بطنه المأبون فى فرجه الذى لم يؤنس منه رشد وقد قال الله تعالى فى اموال اليتامى فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم اموالهم فامرامة محمد اعظم . يأكل الحرام ويشرب الخمر ويلبس الحلة قوّمت بالف دينار قد ضربت فيها الابشار وهتكت فيها الاستار واخذت من غير حلها . حبابة عن يمينه وسلامة عن يساره تغنيانه حتى اذا اخذ الشراب منه كل مأخذ قدّ ثوبه ثم التفت الى احداهما فقال الا اطير . نعم فطر الى لعنة الله وحريق ناره واليم عذابه . واما بنو امية ففرقة ضلالة وبطشهم بطش جبرية يأخذون بالظنة ويقضون بالهوى ويقتلون على الغضب ويحكمون بالشفاعة ويأخذون الفريضة من غير موضعها ويضعونها فى غير اهلها وقد بين الله اهلها فجعلهم ثمانية اصناف فقال انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فاقبل صنف تاسع ليس منها فاخذكلها تلكم الفرقة الحاكمة بغير ما انزل الله . واما هذه الشيع فشيع ظاهرت بكتاب الله واعلنت الفرية على الله لم يفارقوا الناس ببصر نافذ فى الدين ولا بعلم نافذ فى القرآن ينقمون المعصية على اهلها ويعملون اذا ولوا بها يصرون على الفتنة ولا يعرفون المخرج منها جفاة عن القرآن اتباع كهان يؤملون الدول فى بعث الموتى ويعتقدون الرجعة الى الدنيا قلدوا دينهم رجلا لا ينظر لهم قاتلهم الله أنى يؤفكون . ثم اقبل على الحجاز فقال يا اهل الحجاز أتعيروننى باصحابى وتزعمون انهم شباب وهل كان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الا شبابا اما والله انى لعالم بتتابعكم فيما يضركم فى معادكم ولولا اشتغالى بغيركم عنكم ماتركت الاخذ فوق ايديكم . شباب والله مكتهلون فى شبابهم غضيضة عن الشر اعينهم ثقيلة الى الباطل ارجلهم انضاء عبادة واطلاح سهر فنظر الله اليهم فى جوف الليل منحنية اصلابهم على اجزاء القرآن كلما مر احدهم بذكر آية من ذكر

الجنة بكى شوقا اليها واذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين اذنيه موصول كلا لهم بكلالهم كلال النهار بكلال النهار قد اكلت الارض ركبهم وايديهم وانوفهم وجباههم واستقلوا ذلك فى جنب الله حتى اذا رأوا السهام قد فوقت والرماح قد اشرعت والسيوف قد انتضيت ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ومضى الشاب منهم قدما حتى اختلف رجلاه على عنق فرسه وتخضبت بالدماء محاسن وجهه فاسرعت اليه سباع الارض وانحطت اليه طير السماء فكم من عين فى مناقير طير طالما بكى صاحبها فى جوف الليل بالسجود لله . ثم قال أوه أوه أوه ثم بكى ثم نزل .

(خطبة قطرى بن الفجاءة)

وهى تتضمن وصف الدنيا ووصف سكان القبور وصفا بديعا

قال الجاحظ صعد قطرى بن الفجاءة منبر الازارقة وهو احد بنى مازن ابن عمرو بن تميم فحمدالله واثنى عليه ثم قال اما بعد فانى احذركم الدنيا فانها حلوة خضرة حفت بالشهوات وراقت بالقليل وتحببت بالعاجلة وحليت بالآمال وتزينت بالغرور لاتدوم حبرتها ولا تؤمن فجعتها غرارة ضرارة خوانة غدارة وحائلة زائلة ونافدة بائدة اكالة غوالة بدلة نقالة لاتعدو اذاهى تناهت الى امنية اهل الرغبة فيها والرضا عنها ان تكون كما قال الله تعالى كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فاصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شئ مقتدرا . مع ان امرأ لم يكن منها فى حبرة الا اعقبته بعدها عبرة ولم يلق من سرائها بطنا الا منحته من ضرائها ظهرا ولم تطله غيثة رخاء الا هطلت عليه مزنة بلاء وحرى اذا اصبحت له منتصرة ان تمسى له خاذلة متنكرة وان جانب منها اعذوذب واحلولى امر عليه جانب واوبى وان اتت امرأ من غضارتها ورفاهيتها نعما ارهقته من نوائبها تبعا ولم يمس امرؤ منها فى جناح امن الا اصبح منها على قوادم

خوف غرّارة غرور مافيها فان ماعليها لا خير في شيء من زادها الا التقوى من اقلّ منها استكثر مما يؤمنه ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه ويطيل حزنه ويبكي عينيه كم واثق بها قد افجعته وذى طمأنينة اليها قد صرعته وذى اختيال فيها قدخدعته وكم من ذى ابهة بها قدصيرته حقيرا وذى نخوة قدردته ذليلا وكم من ذى تاج قدكبته لليدين والفم سلطانها دول وعيشها رنق وعذبها اجاج وحلوها صبر وغذاؤها سمام واسبابها رمام قطافها سلع حيّها بعرض موت وصحيحها بعرض سقم ومنيعها بعرض اهتضام . مليكها مسلوب وعزيزها مغلوب وسليمها منكوب وجامعها محروب مع ان وراء ذلك سكرات الموت وهول المطلع والوقوف بين يدى الحكم العدل ليجزى الذين اساؤا بما عملوا ويجزى الذين احسنوا بالحسنى . ألستم فى مساكن من كان اطول منكم اعمارا واوضح منكم آثار واعد عديدا واكثف جنودا واعتد عتودا تعبدوا للدنيا أى تعبد وآثروها أى ايثار وظعنوا عنها بالكره والصغار فهل بلغكم ان الدنيا سمحت لهم نفسا بفدية او اغنت عنهم فيما قد اهلكتهم بخطب بل قد ارهقتهم بالقوادح وضعضعتهم بالنوائب وعقرتهم بالمصائب وقد رأيتم تنكّرها لمن زان لها واخلد اليها حين ظعنوا عنها لفراق الابد الى آخر المسند هل زودتهم الا الشقاء واحلتهم الا الضنك اونورت لهم الا الظلمة اواعقبتهم الا الندامة أفهذه تؤثرون ام على هذه تحرصون ام عليها تطمئنون يقول الله من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون اولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار وحبط ماصنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون . فبئست الدار لمن اقام فيها فاعلموا وانتم تعلمون انكم تاركوها لابد فانما هى كما وصفها الله باللعب واللهو وقدقال الله تعالى أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . وذكر الذين قالوا من اشد منا قوة ثم قال حملوا الى قبورهم

فلا يدعون ركبانا وانزلوا فلا يدعون ضيفانا وجعل لهم من الضريح اجنان ومن التراب اكفان ومن الرفات جيران فهم جيرة لا يجيبون داعيا ولا يمنعون ضيما ان اخصبوا لم يفرحوا وان اقحطوا لم يقنطوا جمع وهم آحاد وجيرة وهم ابعاد متنادون لا يزورون ولا يزارون حلماء قد ذهبت اضغانهم وجهلاء قد ماتت احقادهم لا يخشى فجعهم ولا يرجى دفعهم وكما قال الله تعالى فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم وكنا نحن الوارثين استبدلوا بظهر الارض بطنا وبالسعة ضيقا وبالاهل غربة وبالنور ظلمة فجاؤها كما فارقوها حفاة عراة فرادى غير ان ظعنوا باعمالهم الى الحياة الدائمة والى خلود الابد يقول الله تعالى كما بدانا اول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين فاحذروا ما حذركم الله وانتفعوا بمواعظه واعتصموا بحبله عصمنا الله واياكم بطاعته ورزقنا واياكم اداء حقه .

(خطبة لعبيد الله بن زياد بالبصرة)

قال الجاحظ صعد عبيد الله بن زياد المنبر بعد موت يزيد بن معاوية وحيث بلغه ان سلمة بن ذؤيب الرياضى قد جمع الجموع يريد خلعه فقال يا اهل البصرة انسبونى فوالله ما مهاجر ابى الا اليكم وما مولدى الا فيكم وما انا الا رجل منكم والله لقد وليكم ابى وما مقاتلتكم الا اربعون الفا فبلغ بها ثمانين الفا وما ذريتكم الا ثمانون الفا وقد بلغ بها عشرين ومائة الف وانتم اوسع الناس بلادا واكثرهم جنودا وابعد مقادا واغنى الناس عن الناس انظروا رجلا تولونه امركم يكف سفهاءكم ويجبى لكم فيئكم ويقسمه فيما بينكم فانما انا رجل منكم . قال فلما ابوا غيره قال انى اخاف ان يكون الذى يدعوكم الى تأميرى حداثة عهدكم بامرى.

(خطبة يزيد بن الوليد)

هو الخليفة الثانى عشر من بنى امية وهو الذى ولد فى الكعبة ولم

يولد فى الكعبة خليفة غيره وامه من بنات يزدجرد بن كسرى وهو الذى قتل ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبدالملك لمارأى منه المنكر. قال الجاحظ ولما قتل يزيد بن الوليد ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبدالملك قام خطيبا فحمدالله واثنى عليه ثم قال ايهاالناس والله ماخرجت اشرا ولابطرا ولا حرصا على الدنيا ولارغبة فى الملك ومابى اطرى نفسى وانى لظلوم لها ولقد خسرت ان لم يرحمنى ربى ولكنى خرجت غضبا لله ودينه وداعيا الى الله وسنة نبيه لما هدمت معالم الهدى واطفئ نور التقوى وظهرالجبار العنيد المستحل لكل حرمة والراكب لكل بدعة مع انه والله ماكن يؤمن بيوم الحساب ولايصدق بالثواب والعقاب وانه لابن عمى فى النسب وكفئ فى الحسب فلما رأيت ذلك استخرت الله فى امره وسألته ان لايكلنى الى نفسى ودعوت الى ذلك من اجابنى من اهل ولايتى حتى اراح الله منه العباد وطهر منه البلاد بحول الله وقوته لابحولى وقوتى ايهاالناس ان لكم علىّ ان لا اضع حجرا على حجر ولا لبنة على لبنة ولااكرى نهرا ولا اكنز مالا ولا اعطيه زوجا ولا ولدا ولاانقل مالا من بلد الى بلد حتى اسدفقر ذلك البلد وخصاصة اهله بما يغنيهم فان فضل فضل نقلته الى البلد الذى يليه ممن هو احوج اليه منه وان لا اجمرّكم فى ثغوركم فافتنكم وافتن اهليكم ولا اغلق بابى دونكم فيأكل قويكم ضعيفكم ولا احمل على اهل اهل جزيتكم ما اجليهم به عن بلادهم واقطع نسلهم ولكم عندى اعطياتكم فى كل سنة وارزاقكم فى كل شهر حتى تستدر المعيشة بين المسلمين فيكون اقصاهم كادناهم فاذا انا وافيت لكم فعليكم السمع والطاعة وحسن الموازرة والمكانفة وان انا لم اوف لكم فلكم ان تخلعونى الا ان تستتيبونى فان انا تبت قبلتم منى وان عرفتم احدا يقوم مقامى ممن يعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه مثل مااعطيتكم فاردتم ان تبايعوه فانا اول من بايعه ودخل فى طاعته ايهاالناس لاطاعة المخلوق فى معصية الخالق اقول قولى هذا واستغفرالله لى ولكم.

قال الجاحظ فلما بويع مروان بن محمد نبشه وصلبه قال وكانوا يقرؤن في الكتب يامبذرا للكنوز ياسجادا بالاسحار كانت ولايتك رحمة وعليهم حجة اخذوك فصلبوك .

(خطبة الحجاج بعد دير الجماجم)

قال الجاحظ خطب الحجاج اهل العراق بعد دير الجماجم فقال يا اهل العراق ان الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والاطراف والاعضاء والشغاف ثم افضى الى الافخاخ والاصماخ ثم ارتفع فعشش ثم باض وفرخ فحشا كم نفاقا وشقاقا واشعركم خلافا اخذتموه دليلا تتبعونه وقائدا تطيعونه ومؤامرا تستشيرونه فكيف تنفعكم تجربة وتعظكم وقعه اويحجركم اسلام او ينفعكم بيان ألستم اصحابي بالاهواز حيث رمتم المنكر وسعيتم بالغدر واستجمعتم الكفر وظننتم ان الله يخذل دينه وخلافته وانا ارميكم بطرفي وانتم تتسللون لواذا وتنهزمون سراعا ثم يوم الزاوية ومايوم الزاوية بها كان فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ونكوص وليكم عنكم اذوليتم كالابل الشوارد الى اوطانها النوازع الى اعطانها لايسأل المرء عن اخيه ولايلوى الشيخ على بنيه حتى عضكم السلاح وقصمكم الرماح . ثم يوم دير الجماجم ومايوم دير الجماجم به كانت المعارك والملاحم بضرب يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله يا اهل العراق الكفرات بعد الفجرات والغدرات بعد الختراث والنزوة بعد النزوات ان بعثتكم الى ثغوركم غللتم وخنتم وان امنتم ارجفتم وان خفتم نافقتم لاتذكرون حسنة ولاتشكرون نعمة هل استخفكم ناكث او استغواكم غاو او استنفركم عاص اواستنصركم ظالم اواستعضدكم خالع الا تبعتموه وآويتموه ونصرتموه وزجيتموه . يا اهل العراق هل شغب شاغب اونعب ناعب اوزفر زافر الا كنتم اتباعه وانصاره. يااهل العراق ألم تنهكم المواعظ ألم تزجركم الوقائع . ثم التفت الى اهل الشام

فقال يا اهل الشام انما انا لكم كالظليم الرامح عن فراخه ينفى عنها المدر ويباعد عنها الحجر ويكنها من المطر ويحميها من الضباب ويحرسها من الذباب يا اهل الشام انتم الجنة والرداء وانتم العدة والحذاء .

(خطبة اخرى للحجاج ايضا)

قال ابن العربى فى محاضرة الابرار ومن خطب الحجاج ماروينا من حديث ابن ابى الدنيا قال حدثنى محمد بن الحسين قال حدثنا خلف بن تميم انبأنا ابو رجاء الهروى عن ابى بكر الهذلى قال رأيت الحجاج يخطب على المنبر فسمعته يقول ايها الناس انكم غدا موقوفون بين يدى الله عز وجل ومسؤلون فليتق الله امرؤ ولينظر مايعد لذلك الموقف فانه موقف يخسر فيه المبطلون وتذهل فيه العقول ويرجع الامر فيه الى الله لتجزى كل نفس بما كسبت ان الله سريع الحساب بادروا آجالكم باعمالكم قبل ان تخترموا دون آمالكم قال ثم بكى وانتحب وهو على المنبر فرأيت دموعه تحدر على لحيته.

قلت ولا عجب من الحجاج ان يأمر الناس بالتقوى وهو على المنبر ويذكرهم بيوم الحساب لان من عادة الامراء فى ذلك الزمان ان يتكلموا كهذا الكلام اذا صعدوا المنابر فالحجاج انما امر بالتقوى وهو على المنبر جريا على عادتهم فى خطبهم وقد ذكرنا لك فيما سبق ماقاله ابن ابى بردة سليمان بن عبد الملك من ان الحجاج كان يصعد المنبر فيتكلم بكلام الاخيار فاذا نزل عمل عمل الفراعنة . واما العجب كل العجب منه انه يبكى حتى تحدر دموعه على لحيته فان قلنا انه فى قوله كاذب فماذا نقول فى بكائه ودموعه . هذا لعمرى فى الفعال عجيب .

(خطبة اخرى لابى حمزة الخارجى المتقدم ذكره)

يوبخ فيها اهل المدينة

قال اوصيكم بتقوى الله وطاعته والعمل بسنته وصلة الرحم وتعظيم

ماصغرت الجبابرة من حق الله وتصغير ما عظموا من الباطل وامانة ما احيوا من الجور واحياء ما اماتوا من الحقوق وان يطاع الله ويعصى العباد فى طاعته فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . ندعو الى سنة الله والقسم بالسوية والعدل فى الرعية انّا والله ماخرجنا بطرا ولا لهوا ولا لدولة نخوض فيها ولا لثأر قد نيل منا ولكن لما رأينا ان الارض قد اظلمت ومعالم الجور قد ظهرت وكثر الادعاء فى الدين وعمل بالهوى وعطلت الاحكام وقتل القائم بالقسط وعنف القائل بالحق سمعنا مناديا ينادى الى الحق والى طريق مستقيم فاجبنا داعى الله واقبلنا من قبائل شتى قليلين مستضعفين فى الارض فآوانا الله وايّدنا بنصره فاصبحنا بنعمته اخوانا وعلى الدين اعوانا . ياأهل المدينة اولكم خير اول وآخركم شر آخر انكم اطعتم قرّاءكم وفقهاءكم فاختانوكم بتأويل الجاهلين وانتحال المبطلين حتى اصبحتم عن الحق ناكبين امواتا غير احياء وماتشعرون .
يا اهل المدينة يا ابناء المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان ما اصح اصلكم واسقم فرعكم كان آباؤكم اهل اليقين واهل المعرفة بالدين والبصائر النافذة والقلوب الواعية وانتم اهل الضلالة والجهالة استعبدتكم الدنيا فاذلتكم والامانى فاضلتكم فتح الله لكم باب الدين فافسدتموه واغلق عنكم باب الدنيا ففتحتموه سراع الى الفتنة بطاء عن السنة عمى عن البرهان صم عن العرفان عبيد الطمع حلفاء الجزع نعم ما ورثكم آباؤكم لو حفظتموه وبئس ما تورثون ابناءكم ان تمسكوا به نصر الله آباءكم على الحق وخذلكم على الباطل كان عدد آبائكم قليلا طيبا وعددكم كثير خبيث اتبعتم الهوى فارداكم واللهو فاسهاكم تزجركم مواعظ الدين فلا تزدجرون وتعبركم فلا تعتبرون سألناكم عن ولاتكم هؤلاء فقلتم والله مافيهم عادل اخذوا المال من غير حله فوضعوه فى غير محله وجاروا فى الحكم فحكموا بغير ما انزل الله واستأثروا بفيئنا فجعلوه دولة بين الاغنياء منهم فقلنا لكم تعالوا الى هؤلاء الذين ظلموكم وظلموكم وجاروا

فى الحكم فحكموا بغير ما انزل الله فقلتم لانقوى على ذلك ووددنا انا اصبنا من يكفينا فقلنا نحن نكفيكم ثم الله راع علينا وعليكم ان ظفرنا لنعطين كل ذى حق حقه فجئنا فقابلنا الرماح بصدورنا والسيوف بوجوهنا فعرضتم لنا دونهم فقاتلتمونا فوالله لوقلتم لا نعرف الذى نقول ولا نعلمه لكان اعذر مع انه لا عذر للجاهل ولكن ابى الله الا ان ينطق بالحق على ألسنتكم ويأخذكم به فى الآخرة .

(خطبة لواصل بن عطاء وهى خلو من الراء كما ترى)

قال الحمد لله القديم بلا غاية والباقى بلا نهاية الذى علا فى دنوّه ودنا فى علوه فلا يحويه زمان ولا يحيط به مكان ولا يؤوده حفظ ما خلق ولم يخلقه على مثال سبق بل انشأه ابتداعا وعدله اصطناعا فاحسن كل شئ خلقه وتمم مشيئته واوضح حكمته فدل على الوهيته فسبحانه لا معقب لحكمه ولا دافع لقضائه تواضع كل شئ لعظمته وذل كل شئ لسلطانه ووسع كل شئ فضله لا يعزب عنه مثقال حبة وهو السميع العليم واشهد ان لا اله الا الله وحده الهاً تقدست اسماؤه وعظمت آلاؤه علا عن صفات كل مخلوق وتنزه عن شبه كل مصنوع فلا تبلغه الاوهام ولا تحيط بة العقول ولا الافهام يعصى فيحلم ويدعى فيسمع ويقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعلون واشهد شهادة حق وقول صدق باخلاص نية وصحة طوية ان محمد بن عبدالله عبده ونبيه وخالصته وصفيه ابتعثه الى خلقه بالبينة والهدى ودين الحق فبلغ مألكته ونصح لامته وجاهد فى سبيل الله لاتأخذه فى الله لومة لائم ولا يصده عنه زعم زاعم ماضيا على سنته موفيا على قصده حتى اتاه اليقين فصلى الله على محمد وعلى آل محمد افضل وازكى واتم وانمى واجل واعلى صلاة صلاها على صفوة انبيائه وخالصة ملائكته واضعاف ذلك انه

حميد مجيد اوصيكم عباد الله مع نفسي بتقوى الله والعمل بطاعته والمجانبة لمعصيته واحضكم على ما يدنيكم منه ويزلفكم لديه فان تقوى الله افضل زاد واحسن عاقبة فى معاد ولا تلهينكم الحياة الدنيا بزينتها وخدعها وفوات لذاتها وشهوات آمالها فانها متاع قليل ومدة الى حين وكل شئ منها يزول فكم عاينتم من اعاجيبها وكم نصبت لكم من حبائلها واهلكت من جنح اليها واعتمد عليها اذاقتهم حلوا ومزجت لهم سما اين الملوك الذين بنوا المدائن وشيدوا المصانع واوثقوا الابواب وكاثفوا الحجاب واعدوا الجياد وملكوا البلاد واستخدموا التلاد قبضتهم بمحملها وطحنتهم بكلكلها وعضتهم بانيابها وعاضتهم من السعة ضيقا ومن العزة ذلا ومن الحياة فناء فسكنوا اللحود واكلتهم الدود واصبحوا لا تشاهد الا مساكنهم ولا تجد الا معالمهم ولا تحس منهم ولا تسمع لهم نبسا فتزودوا عافاكم الله فان افضل الزاد التقوى واتقوا الله يا اولى الالباب لعلكم تفلحون .

المبحث الثامن عشر

(فى بيان المنهج الذى يجب على من زاول الخطابة ان ينهجه)

قد رأينا ان نختم هذه الرسالة بما ذكره الجاحظ من كلام بشر بن المعتمر فى الخطابة والمنهج الذى انهجه لها فنقول

قال الجاحظ مر بشر بن المعتمر بابراهيم بن جبلة بن مخرمه السكونى الخطيب وهو يعلم فتيانهم الخطابة فوقف بشر فظن ابراهيم انه انما وقف ليستفيد اوليكون رجلا من النظارة فقال بشر اضربوا عما قال صفحا واطووا عنه كشحا ثم دفع اليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه وكان اول ذلك الكلام : خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك واجابتها اياك فان قليل تلك الساعة اكرم جوهرا واشرف حسبا واحسن فى الاسماع واحلى فى الصدور واسلم من فاحش الخطأ واجلب لكل عين وغرّة من لفظ

شريف ومعنى بديع واعلم ان ذلك اجدى عليك مما يعطيك يومك الاطول بالكد والمطاولة والمجاهدة وبالتكلف والمعاودة ومهما اخطأك لم يخطئك انيكون مقبولا قصدا وخفيفا على اللسان سهلا وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه واياك والتوعر فان التوعر يسلمك الى التعقيد والتعقيد هوالذى يستهلك معانيك ويشين الفاظك ومن اراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ومن حقهما ان تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما وعما تعود من اجله الى ان تكون اسوأ حالا منك قبل ان تلتمس اظهارهما وترتهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما . وكن فى ثلاث منازل فان اولى الثلاث ان يكون لفظك رشيقا عذبا وفخما سهلا ويكون معناك ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا اما عند الخاصة ان كنت للخاصة قصدت واما عند العامة ان كنت للعامة اردت والمعنى ليس يشرف بان يكون من معانى الخاصة وكذلك ليس يتضع بان يكون من معانى العامة وانما مدار الشرف على الصواب واحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال . وكذلك اللفظ العامى والخاصى فان امكنك ان تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك على ان تفهم العامة معانى الخاصة وتكسوها الالفاظ الواسطة التى لا تلطف عن الدهماء ولا تجفو عن الاكفاء فانت البليغ التام . فان كانت المنزلة الاولى لا تواتيك ولا تعتريك ولا تسنح لك عند اول نظرك فى اول تكلفك وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصر الى قرارها والى حقها من اماكنها المقسومة لها والقافية لم تحل فى مركزها وفى نصابها ولم تتصل بشكلها وكانت قلقة فى مكانها نافرة من موضعها فلا تكرهها على اغتصاب الاماكن والنزول فى غير اوطانها فانك اذا لم تتعاط قريض الشعر الموزون ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور لم يعبك بترك ذلك احد وان انت تكلفت ذلك ولم تكن حاذقا مطبوعا ولا محكما لسانك بصيرا بما عليك اومالك عابك من انت اقل عيبا منه ورأى

من هو دونك انه فوقك فان ابتليت بان تتكلف القول وتتعاطى الصنعة ولم تسمح لك الطباع فى اول وهلة وتعصى عليك بعد اجالة الفكرة فلا تعجل ولا تضجر ودعه بياض يومك او سواد ليلك وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك فانك لاتعدم الاجابة والمواتاة ان كانت هناك طبيعة او جريت من الصناعة على عرق فان تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض ومن غير طول اهمال فالمنزلة الثالثة ان تتحول من هذه الصناعة الى اشهى الصناعات اليك واخفها عليك فانك لم تشتهه ولم تنازع اليه الا وبينكما نسب والشئ لايحن الا الى مايشاكله وان كانت المشاكلة قد تكون فى طبقات لان النفوس لاتجود بمكنونها مع الرغبة ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة كما تجود به مع المحبة والشهوة فهكذا هذا .

قال بشر فلما قرئت على ابراهيم قال لى انا احوج الى هذا من هؤلاء الفتيان .

ومما يحسن ان يذكر فى هذا الباب مانقله الجاحظ ايضا عن اسحاق ابن حسان بن فوهة من انه قال لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع احد قط . سئل ما البلاغة فقال البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة فمنها ما يكون فى السكوت ومنها ما يكون فى الاستماع ومنها مايكون فى الاشارة ومنها ما يكون فى الحديث ومنها ما يكون فى الاحتجاج ومنها ما يكون جوابا ومنها ما يكون ابتداء ومنها ما يكون شعرا ومنها ما يكون سجعا وخطبا ومنها ما يكون رسائل . فعامة مايكون من هذه الابواب الوحى فيها والاشارة الى المعنى والايجاز هو البلاغة فاما الخطب بين السماطين وفى اصلاح ذات البين فالاكثار فى غير خطل والاطالة فى غير املال وليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك كما أن خير ابيات الشعر البيت الذى اذا سمعت صدره عرفت قافيته. قال الجاحظ كأنه يقول فرق بين صدر خطبة النكاح وبين صدر خطبة العيد وخطبة الصلح وخطبة

المواهب حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه فانه لاخير في كلام لايدل على معناك ولايشير الى مغزاك والى العمود الذى اليه قصدت والغرض الذى اليه نزعت . قال فقيل له اى لابن المقفع فان مل المستمع الاطالة التى ذكرت انها حق ذلك الموقف فقال اذا اعطيت كل مقام حقه وقمت بالذى يجب من سياسة ذلك المقام وارضيت من يعرف حقوق الكلام فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو فانه لا يرضيهما شئ واما الجاهل فلست منه وليس منك ورضا جميع الناس شئ لاتناله وقدكان يقال « رضاء الناس شئ لاينال » انتهى .

هذا مااردنا جمعه وتلفيقه فى هذه الرسالة ونسأل الله تعالى ان
ينفع به طالبيه انه على ذلك قدير وبالاجابة جدير وقد
وقع الفراغ من تسويدها لاحدى وعشرين
ليلة خلت من شعبان سنة خمس
وثلاثين وثلاثمائة
بعد الالف

م م
م

*

فهرس مفصل للكتاب

ومنهم زيد بن علي بن الحسين .

ومنهم سعيد بن العاصي وابنه عمرو بن سعيد الملقب بالاشدق وحفيده سعيد بن عمرو بن سعيد .

ومنهم سهيل بن عمرو الاعلم .

ومنهم ابو عمرو وابو سفيان ابنا العلاء .

ومنهم خالد بن سلمة المخزومي وهو ذوالشفة ودغفل بن حنظلة .

ومنهم عبيدالله بن زياد بن ظبيان التيمي العايشي .

ومنهم عبدالله بن عباس .

ومنهم داود بن علي وهو من خطباء بني هاشم وكذلك سليمان بن جعفر والي مكة .

ومنهم خالد بن صفوان الاهتمي وكذلك ابوه صفوان بن عبدالله ابن الاهتم .

ومنهم حنظلة بن ضرار الضبي . وكذلك مشجور بن غيلان من بني ضبة .

ومنهم قطري بن الفجاءة وهو من خطباء الخوارج .

ومنهم ابن صديقة الخارجي .

ومنهم الضحاك بن قيس وهو من ائمة الخوارج .

ومن خطباء الخوارج وعلمائهم نصر بن ملحان وعمران بن حطان والمقعطل قاضي عسكر الازارقة .

ومن الخطباء معبد بن طوق العنبري .

ومن خطباء العرب سحبان وائل .

ومنهم ابو عمار الطائي خطيب مذحج .

ومنهم خويلد بن عمرو العشراء خطيب يوم الفجار .

ومنهم كعب بن لؤي .

ومنهم مرة بن فهم التليد .

صحيفه

ومنهم شبيب بن شيبة بن عبدالله بن عبدالله بن الاهتم .
ومنهم جعفر بن يحيي بن خالد .
ومنهم ثمامة بن اشرس .
ومنهم زرعة بن ضمرة من بنى هلال بن عامر .
ومنهم الحجاج بن يوسف الثقفى .
ومنهم واصل بن عطاء الملقب بالغزال .
ومن خطباء هذا العصر عبدالعزيز الثونسى .
ومنهم الشيخ عبدالعزيز شاويش صاحب مجلة الهداية .
ومنهم الامير شكيب ارسلان .
ومنهم الشيخ صالح الشريف التونسى .
ومنهم الشيخ اسعد شقير .
ومنهم محمد كرد على صاحب مجلة المقتبس بالشام .
ومنهم الشيخ رشيد رضا صاحب مجلةالمنار بمصر .
ومنهم الشيخ مصطفى الغلايينى صاحب مجلة النبراس ببيروت .
ومنهم فيلكس فارس صاحب جريدة الاتحاد ببيروت .
ومنهم اسكندر العازار .
ومنهم اليـاس طراد وابراهيم الحورانى وانطون شحيبر وامين الريحان وبشارة الخورى صـاحب جريدة البرق وداود مجاعص صاحب جريدة الحرية .

١٢٠ المبحث السابع عشر فى ذكر بعض الخطب المشهورة .
خطبة لعمر بن الخطاب رضى الله عنه .
خطبة لمعاوية بن ابى سفيان وقد اظهر الجاحظ العجب من نسبة هذه الخطبة الى معاوية وقد تعقبنا الجاحظ فى ذلك .
خطبة لعبدالله بن الاهتم عند عمر بن عبدالعزيز .
خطبة لعمر بن عبدالعزيز وهى آخر خطبة له .

صحيفه

جدول

يتضمن اصلاح ما فى الكتاب من الاغلاط

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
٣	١	حمد لله	حمداً لله
٥	١٠	الفائل	القائل
٦	١٥	فاعدهم	قاعدهم
٩	٢٢	فيماياأنى	فيماياأتى
١٠	٩	اذا حقفته	اذا حققته
١٢	٢	صاعنا	صلفنا
١٤	١٣	وسنأنى	وسنأتى
١٨	١٤	فادرون	قادرون
١٩	٦	يزيد	يريد
٢٢	١٨	الصغير	الصفير
٢٦	١١	الميم	المتيم
٢٦	٢٠	القب	القلب
٣٨	١٤	مفانيح	مفاتيح
٣٨	١٥	لايعنى عغنك	لايغنى عنك
٥١	٩	انفة	انفه
٥١	١٥	امثك	امتك
٥٣	٥	لم توستخ	لم توشح
٥٤	١٩	نقبناه	نقبنا
٥٦	١١	ومنها	منها
٥٧	١٨	ووقفك	ووفقك
٦٤	٥	قفر	فقر
٦٥	١٢	الصغريه	الصفريه

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
٦٦	٦	قبلك	قلبك
٦٨	١٤	الاكيمة	الاكيمه
٧٢	١١	يستعضى	يستعصى
٧٣	٢٤	لما	فلما
٧٣	٢٤	ق	يرزق
٧٥	٢	قلنها	قلتها
٧٥	١٦	قعائها	بقفائها
٧٦	٥	•	والعجب
٧٦	١١	فال	قال
٧٧	٧	فاخلعتكم	فاخلفتكم
٨٠	٢٣	ويقرب	وبقرب
٨٢	٧	الفبيح	القبيح
٨٢	٢٢	العاترة	الفاترة
٨٢	٢٥	لعلان	لفلان
٨٦	١	ماتصع	ماتصنع
٨٦	١٢	وبود	وابود
٨٦	١٣	فتزل	فنزل
٨٧	٩	علبهم	عليهم
٨٧	١٧	أفانتم	أفاتم
٩٠	٤	الغعارى	الغفارى
٩٠	١٥	والزبرفان	والزبرقان
٩٠	١٩	ولعد	ولقد
٩١	١٦	فسؤنى	فسؤتى
٩١	١٩	المنجدثينا	المتحدثينا

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
٩٤	١٠	ومن قال	ومن قال
٩٦	١١	حتى	حتى
٩٦	٢١	لاترانى	لاترانى
٩٩	٧	خطيبا	خطيبا
٩٩	١١	ابن	أين
١٠٠	٢٠	جزام	جذام
١٠١	١٢	لطلتها	اطلتها
١٠١	١٢	خرقها	لخرقها
١٠٣	١١	فاتم	فاتم
١٠٤	١٧	اشربه	اشربه
١٠٦	٨	قنالا	قتالا
١٠٨	١٨	بلـه	بلغه
١١١	١٣	مابين عينى	جلدة مابين عينى

جدول

يتضمن اصلاح ما فى الكتاب من الاغلاط

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
٣	١	حمد لله	حمداً لله
٥	١٠	الفائل	القائل
٦	١٥	فاعدهم	قاعدهم
٩	٢٢	فمايأنى	فمايأتى
١٠	٩	اذا خققته	اذا حققته
١٢	٢	صاعنا	صلفنا
١٤	١٣	وسأنى	وسأتى
١٨	١٤	فادرون	قادرون
١٩	٦	يزبد	يريد
٢٢	١٨	الصغير	الصفير
٢٦	١١	الميم	المتيم
٢٦	٢٠	القب	القلب
٣٨	١٤	مفانيح	مفاتيح
٣٨	١٥	لايغنى عغنك	لايغنى عنك
٥١	٩	انفة	انفه
٥١	١٥	امثك	امتك
٥٣	٥	لم توشخ	لم توشح
٥٤	١٩	نقبناه	نقبنا
٥٦	١١	ومنها	منها
٥٧	١٨	ووقفك	ووفقك
٦٤	٥	قفر	فقر
٦٥	١٢	الصغريه	الصفريه

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
٦٦	٦	قبلك	قلبك
٦٨	١٤	الاكيمة	الاكيمه
٧٢	١١	يستعضى	يستعصى
٧٣	٢٤	لما	فلما
٧٣	٢٤	ق	يرزق
٧٥	٢	قلنها	قلتها
٧٥	١٦	قعائها	قفائها
٧٦	٥	•	والعجب
٧٦	١١	فال	قال
٧٧	٧	فاخلعتكم	فاخلفتكم
٨٠	٢٣	ويقرب	ويقرب
٨٢	٧	الفبيح	القبيح
٨٢	٢٢	العاترة	الفاترة
٨٢	٢٥	لعلان	لفلان
٨٦	١	ماتصع	ماتصنع
٨٦	١٢	وبوه	وابوه
٨٦	١٣	فتزل	فنزل
٨٧	٩	علبهم	عليهم
٨٧	١٧	أفاتم	أفاتم
٩٠	٤	الغعارى	الغفارى
٩٠	١٥	والزبرفان	والزبرقان
٩٠	١٩	ولعد	ولقد
٩١	١٦	فسؤنى	فسؤتى
٩١	١٩	المنحدثينا	المتحدثينا

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
٩٤	١٠	ومن فال	ومن قال
٩٦	١١	حنى	حتى
٩٦	٢١	لا نرانى	لا ترانى
٩٩	٧	خطيا	خطيبا
٩٩	١١	ابن	أين
١٠٠	٢٠	جزام	جذام
١٠١	١٢	لطانها	لطالها
١٠١	١٢	لخرقها	لخرقها
١٠٣	١١	فاتهم	فانهم
١٠٤	١٧	اشربه	اشربه
١٠٦	٨	قنالا	قتالا
١٠٨	١٨	بلله	بالغه
١١١	١٣	مابين عينى	جلدة مابين عينى